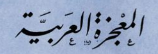
ماكس ڤانتاجو



المعجزة العربية

نقله عن الفرنسية
رمضان لاوند



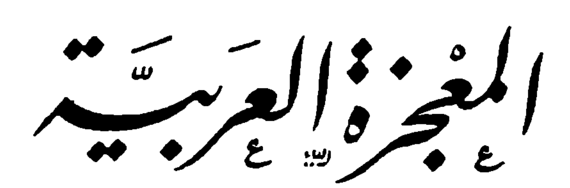
دار العلم للملايين
ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢-٢٧٠٢٩١


المعجزة العربية



www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

ماكس ڤانتاجو



نقله عن الفرنسية
رمضان لاوند

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢ - ٢٩١٠٢٧





الطبعة الأولى ١٩٥٤

الطبعة الثانية

كانون الثاني (يناير) ١٩٨١

تمهيد

بينما كنت أهيىء تصميماً لمجموعة عربية فرنسية من نصوص مفكري الإسلام، قياماً بواجبي كرئيس للجنة الفاحصة في مباراة التعليم الثانوي العربي العالي، وقع بين يديّ كتاب - المعجزة العربية - للسيد فانتاجو.

وقد وضعت ملاحظات الأطباء العياديين أمثال الجراح محمد بن زكريا الرازي والرياضيين كالبيروني - مكتشف الهند - ورواد المحيط الهندي كبزرج بن شهريار إلى جانب أبحاث في الحضور الإلهي من مثل تحليلات الجنيد والحلاج الصوفيين وابن عباد والسمّاني والسرهندي الأخلاقيين، هذه الأبحاث التي نشر قسم منها، في مجموعة النصوص التي أخرجتها سنة ١٩٢٩ (دون أن تنقل من لغة إلى أخرى، اللهم غير مجموعة شاخت، في اللغة الألمانية).

كما حللت في غير هذه المناسبة الشروط اللغوية

للتعبير عن الفكر في اللغات السامية. وبما أن اللغة العربية من بين هذه اللغات هي أكثرها صفاء فقد استطاعت أن تفسر لي أصالتها الخاصة في طرز التعبير العلمي والفني (الموسيقي) والصوفي.

لقد استطاعت هذه اللغة أن تنمي من خلال نحوها القدرة السامية في التعبير عن الفكر المجرد. وفي هذا التركيب اللغوي الموجز الذي سمح بتركيز وضبط نتائج الباحثين التجريبية إلى جانب أبحاث الأطباء العياديين والرياضيين ومكتشفي الأرض والأحلام وأسرار النفس الإنسانية في مقالات مختصرة قاسية جافة. أضف إلى ذلك ملاحظات في الجبر والمعادلات الكيميائية والزيجات الفلكية، والسلاسل الحسابية ومراحل سفر النفس إلى المجهول. ولا شك أن المنهج العلمي في الحضارة الغربية قد تخلص بواسطة العربية ومن خلالها، من المثال الكروي والهندسي الوثني، لأشكال مغلقة عقلانية نهائية حبست العلم اليوناني ردحاً طويلاً من الزمن. كما تخلص من الخطوط التي تضاف إلى حلّ المعادلات الرياضية باستعمال الصفر، ومن المضلع بالزخرفة العربية.

وقد أورد البعض على وجهة نظرنا ثلاثة اعتراضات:

١) إن تخلص العربية مما ذكرناه لم يكن كلياً. ولا سيما بعد أن هُزِمت المنهجية التجريبية الرواقية عند العرب بالعقلية الأرسطية. وقد كان فساد التعبير العلمي المدرسي الجالينوسي بصورة نهائية في العربية على قدر فساد علم الطبيعة وانهياره عندهم.

٢) إن الذين رعوا اليقظة العلمية عند العرب في القرون الوسطى لا ينتسبون إلى الجنس العربي.

٣) إن العرب اليوم لم يكادوا يتخلصون من عهود الاضطهاد التي حطمت اعصابهم حتى وقعوا تحت نير التقنية الاستعمارية واللغات الآرية التي هُيئت بخيرٍ مما هيئت له اللغة العربية، وإلى حد بعيد، للتعبير عن التصنيع الحديث.

أما جوابي عن هذه الاعتراضات الثلاثة فسيكون واضحاً:

١) ليس التعبير العلمي العربي في القرون الوسطى فاسداً كله. إن الذي فسد هو الجانب التصنيعي الآلي

منه وحسب، هذا الجانب الذي يفرض النجاحُ المادي المطرد تجدده وتطوره. أما فيما يتعلق بالمعجمية الجدلية، النفسية والصوفية، فإن قيمة العربية ليست فقط خالية من كل نقص ولكنها على التحقيق تستطيع أن تبعث الحياة والشباب في الفكر الغربي، كما بعثت قصة ألف ليلة وليلة لجالان ذهنية القرن السابع عشر التي كانت مشبعة بالأقاصيص الميلازية عند الرومان واليونان.

٢) لا مشاحة أن كبار رجال الحضارة والأدب العربيين لم يكونوا ذوي دم عربي محض بل موالٍ مستعربون. ولكن هذا لا يعتبر في نظرنا ظاهرة ضعف بل قوة فريدة جعلت من الضيوف أبدالاً توافدوا من كل أمة وهم عارفون لهذه اللغة قوة في التعبير، وايجازاً فريداً، بل معجزة لغوية للدراسة العلمية. وقد صرح بذلك البيروني في اللغة العربية نفسها وهو الغريب عنها والضيف الطارىء عليها.

٣) صحيح أن السوء الذي يقال عن العرب قد ايأسهم. ومن حق العرب علينا نحن ضيوفهم والوافدين

عليهم، من مثلي أنا والسيد فانتاجو، أن نرفع الصوت عالياً، طالبين اليهم المقاومة: أن يقاوموا هذه الدعاية المذلة التي تقترح عليهم التنازل عن شرفهم وتقليدهم وآبائهم، والاستسلام أمام القوة الاستعمارية ورؤوس المال المصرفية التي تطلب اليهم الانسجام في طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة، حضارة الإنسان الآلي التي لم تعد تؤمن بنفسها أو بالذات الالهية، وتصبو إلى اخضاع العالم لنظامية ثقافية اميركية بلهاء. إن هذا الانتاج الصناعي المغشوش سيسقط وشيكاً.ليصمدوا فالعالم في حاجة إليهم.

لندفعهم إلى احترام عربيتهم، هذه الآلة اللغوية الصافية والصالحة لنقل اكتشافات الفكر عبر الدول. فلا نحيلها مسخاً مقلداً للغاتنا الآرية، كما لا نتركها تتخثر في قومية ضيقة، فِعْلَ العبرانية الجديدة للصهيونية المتطرفة.

إن البعث الدولي للغة العربية عامل أساسي في إشاعة السلام بين الأمم في المستقبل. وقد كانت هذه اللغة في نظر كثير من الفرنسيين المسيحيين، وأنا

منهم، وما تزال، لغة الحرية العليا، ووحي الحب، والرغبة التي تطلب إلى الله - من خلال الدموع - أن يكشف عن وجهه الكريم.

لويس ماسينيون



مقدمة المؤلف

لست مؤرخاً. وظني انني لست ثائراً أيضاً. فأنا ابن وحفيد لأساتذة سابقين. اعرف قيمة الهيئة التعليمية العظيمة التي تفخر بها فرنسا من ناحية، كما اعرف من ناحية أخرى النقائص الخطيرة والاضطرابات التي يحدثها تغير متتابع لبرامج التعليم.

وليست تربيتي الخاصة ولا تكويني الثقافي أو حاجتي الغرزية إلى اشاعة الاضطراب - وهي حاجة وراثية عند اشباهي من الناس - هي التي دفعتني إلى الكتابة في التاريخ وبعث آراء أصيلة فيه. ولكنني أدركت بعد تأمل ناضج فساد الطريقة التي تعلمت بها التاريخ. وهي الطريقة المستعملة حتى اليوم رغم ما سجل من النجاح في السنوات الأخيرة. كما أدركت أن هذه الطريقة ستترك أسوأ الآثار في تكوين الفرنسيين العقلي.

لنتصور برهة من الزمن، ان تدريس الجغرافيا، في بلد طوبوي، قد اعطي على الطريقة التالية: يدرس الطلاب المبتدئون فقط خريطة اليونان على مقياس محدد. وفي السنة التالية، يعلّمون خريطة اميركا الجنوبية على مقياس آخر مختلف تمام الاختلاف، ثم توضع بين أيديهم على التتابع خلال دراساتهم جغرافية فنلندا على مقياس كبير جداً، فجغرافية افريقيا على مقياس آخر صغير جداً؛ اما اوقيانوسيا واميركا الشمالية فتعتبران قليلتي الأهمية، ولذلك يُغفل امرها. ولانهاء هذه المرحلة الدراسية يكرس الطلاب سنتين طويلتين كاملتين لدراسة بلجيكا وأفغانستان على خارطة مقياسها (٨٠,٠٠٠°) بالاضافة إلى حرمان هؤلاء الطلاب أنفسهم من رؤية الكرة الأرضية مجسمة أو الصورة الكاملة لهذه الكرة نفسها في أطلسهم الجغرافي.

إن في هذا البرنامج التعليمي من فقدان المنطق وفساد النتائج ما لا نجد معه أية فائدة في تحليله وتمحيصه.

وهنا يحق لي أن أضع السؤال التالي: لِمَ نتبنى هذا

النوع من البرامج في تعليم التاريخ؟ فالحقيقة أن من لا يتخصصون منا في الدراسات التاريخية لا يحفظون من دراساتهم المدرسية غير ثلاثة أشياء: أولاً: تاريخ أثينا واسبرطة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، منذ معركة ماراثون على التقريب حتى غزو الاسكندر، ثم تاريخ روما ابتداءً من الحروب القرطاجية حتى ولاية اوغسطس (وقد يتذكر بعض المحظوظين اسم قسطنطين)، وأخيراً، وبعد فجوة قرون عديدة، تاريخ فرنسا، منذ عهد كلوفيس حتى أيامنا هذه، مختصراً فيما يتعلق بعهد شارلمان وهوغ كابيه، ومطولاً مدروساً من خلال المجهر بين سنة ١٧٨٩ م و ١٨١٥ م.

وقد أصبحت هذه الطريقة جزءاً من عاداتنا وتكويننا التاريخي بحيث أنها لا تكاد تلفت نظرنا عند الوهلة الأولى. فتقسيم الزمن إلى مراحل مهمة، وأخرى مهملة باقية في الظلام، في نوع من الانتقاء التحكمي شيء عادي، كما نجد انقطاع الترابط بين هذه المراحل شيئاً عادياً أيضاً، مما يشعرنا بتقطع تاريخ حضارتنا، تقطعاً لا يتفق مع الواقع في شيء. أضف إلى هذا أننا لا نستغرب معرفتنا بمنافسات،

فرادا جوند وبرونهو، التي لا تبعث على الفخر بينما نحن نجهل العصور التي كان يعيش فيها فيثاغورس وأقليدس. وأخيراً لا يدهشنا أن نعرف بالتفصيل الدقيق ولاية اوغسطس، ثم نجهل اسم قطب الحضارة الكبيرة، الخلفية المأمون.

في هذه الأثناء تنبه كثير من المفكرين للنقائص الخطيرة التي يحدثها هذا التعليم التاريخي المتقطع، بعد أن شعروا بالانزعاج حين لاحظوا فجوات في معارفهم درسها الكثيرون وأطلق عليها أحدهم[1] اسم « صداع الفجوات ». وهو صداع حقيقي يشبه في كل جوانبه ذاك الذي يحسّ به المسافر في سفر طويل على طريق مجهولة، ثم يدرك أن خارطة تنقصه.

ويقيني أن أحداً من الناس لن يعتبر مقارنتي سيئة، وان التاريخ لن يتجدد، وأن رافاياك لن يغتال هنري الرابع في المستقبل، وأن خارطة الماضي لا تفيد الذين يعيشون في الزمن الحاضر.

---

(١) شاتيليه: نورمانديا المتوسطية

وفي نظري أن أصحاب هذا الرأي مخطئون، فالرجال لا يتغيرون، ولا تختلف أخلاقهم، أو عاداتهم، كما لا تختلف طريقة العيش معهم بتفاهم تام أو طريقة سياستهم سياسة صالحة، وإن اختلفت الحوادث الجزئية الطارئة.

فتقديري أن من يستقل مركباً لسفر الحياة دون أن يدرس، بل دون أن تكون بين يديه مخططات كاملة لتاريخ حضارتنا هو من حداثة العهد بحيث يكون كالمسافر الذي يرحل دون خرائط في سفرة طويلة جداً.

وإذا كان هذا رأيي في المسافر العادي فما عساه أن يكون في القائد الدليل؟ وفي كل مرة يتاح لي فيها الحكم على معارف حكامنا التاريخية، إن بواسطة خطبهم آو كتاباتهم، أو باتصالات شخصية، أشعر مع الأسف الشديد، خلا حالات استثنائية، في مفاجأة مؤلمة، بأن هذه المعارف ليست أكمل من المعارف الوسطية بيننا.

وقد حدث أن شعرت بانزعاج شديد حين سمعت

احد وزرائنا يتكلم عن علاقات الفرنسيين والعرب بطريقة تثبت جهله المطبق بماضي هؤلاء العظيم، أو سمعته يصرح للصحف بتأكيدات مدهشة لا تدع مجالاً للشك في أن ما يعرفه عن (سيروس Cyrus)، هذا إن عرفه، قد اطلع عليه في رواية الآنسة سكوداري. فأحسست بشيء من القلق وأنا أفكر بأنني ومواطني موجودون في طائرة يقودها أمثال هذا القائد.

إنني أجهل في أية رحلة من العمر وفي أي مكان، وبواسطة مَنْ من الناس، يجب أن تعرض علينا خريطة التاريخ، التي هي تاريخ حضارتنا، كما لا حق لي في الالماح إليها، لأنها مهمة المربي. ولكنني أجد متعذراً علي، في بلد ينتسب إلى عالم متمدن، أن أفهم كيف أن مهندسين يخرجون من المدارس الكبرى وهم يجهلون في أي عصر كان يعيش ارخميدس، وأن فنانين لا يعرفون شيئاً عن فن (غوبتا) وأن رجال الدولة لا يدركون عصر هارون الرشيد إلا من خلال ألف ليلة وليلة.

فالصفحات التالية لا تزعم القدرة على ملء هذا الفراغ - ومن الضروري أن أقول ذلك - ورجائي ألا

يجد فيها القارىء غير قصة متواضعة لسفرة عبر منطقة من مناطق التاريخ مجهولة من قبل رجالنا الرسميين: إنها القرون الوسطى.

فهل تستطيع أن تضع في الطريق السوي بعض المسافرين التائهين؟



١ - نهاية العهد اليوناني القديم ويقظة الفرس

من القرن الثاني إلى القرن الخامس بعد الميلاد

كثيرون هم اليونانيون الذين اندفعوا وراء الاسكندر في غزواته المظفرة إلى ايونيا، ومصر، والعراق حتى الهند، إلى هذا العالم الذي وضع فجأة أمام فضولهم وعقليتهم العملية إمكانات لا نهائية لامبراطورية استعمارية ضخمة. وقد انتشرت الهلينية خلال قرنين من الزمان انتشاراً واسعاً جداً بين النيل والكانج. فأسست مدن عمرها اليونان ورفعت هياكل وبنيت قناطر، وكان العلماء يعملون والفن اليوناني يشع رائعاً محدثاً بين ما أحدثه رائعتين اثنتين جديدتين[١].

(١) مغارة الاسكندرية وعمود رودس اللذان انتهيا على التتابع في ٢٨٣ و ٢٨٠. ق.م.

والواقع أن مستقبل الممالك اليونانية كان غامضاً شديد الغموض يهدد وجودها خطران يتضخمان في الأفق. أما في الشرق فقد كانت القوى الفارسية التي هزمها الاسكندر بصورة وقتية تجمع قواها في مرتفعات جبال خراسان تحت قيادة البارثيين الذين كانوا قد أوقعوا الهزيمة بالسلوقيين، وأما في الغرب فقد كانت تنمو قوة جديدة شابة نصف بربرية صناعتها الرئيسية هي الحرب. وقد استطاعت هذه القوة متنقلة من غزوة إلى غزوة ومن اكتساح إلى اكتساح أن تؤمن لنفسها السلطان السياسي والاقتصادي في حوض المتوسط الغربي: إنها القوة الرومانية.

أما وضع اليونان، المتفرقين في اصقاعهم الشاسعة من الشرق الأدنى، في اعداد قليلة، والذين لم يكونوا يملكون في اليونان - موطنهم الأساسي - عدداً كافياً أيضاً، إن وضع هؤلاء في تلك الظروف كان لا يسمح لهم بالمقاومة.. فلم يقاوموا. وعلى ذلك فقد اقتسم الرومان والفرس الأراضي اليونانية وأصبح نهر الفرات حداً للامبراطوريتين الجديدتين.

كانت منطقة النفوذ الروماني تشتمل في الوقت نفسه على أثينا، وبرغام ورودس والاسكندرية أي على المراكز الثقافية الأساسية في العالم الهليني، ولذلك فقد كان من المنتظر أن يهضم الرومان الثقافة الهلينية بسرعة فيحملوا الشعلة الحضارية عالياً. أما اليوم فإننا نعرف الأسباب التي أحدثت عكس ذلك. وان هذه المهمة المجيدة قد أصبحت من نصيب الإيرانيين والعرب الذين كانوا يعمرون الامبراطورية المجاورة.

ولا يعني ذلك أن الرومان لم يحاولوا فهم الثقافة الهلينية وتبنيها لأنفسهم. فنحن نعرف كم كان النفوذ اليوناني كبيراً في روما منذ أوائل الغزو، كما نعرف أن الامتياز الثقافي الذي يتمتع به سفراء اليونان ورهائنهم كان ذا تأثير عميق. ومن الثابت بعد ذلك بقرن واحد أن عدداً من الرومان حاول باخلاص دراسة الثقافة اليونانية وإثارة اهتمام مواطنيه بها ووضعها في متناول أيديهم.

فناضل لوكريس لتحطيم «الحديد الثقيل الذي يُذبل دينهُ الرجالَ» وجرب في كتابه (De natura rerum) تبسيط مكتشفات الفكر اليوناني الأساسية

في شعر منظوم. وقد ساعده بعد ذلك في هذه المهمة الصعبة صديقه شيشرون وكتب بعده كتاب (De natura duorum) الذي كان يشرح فيه للرومان بوضوح كاف ما فهمه من النظريات اليونانية. وقد اثبتت الأخطاء[١] التي ارتكبها مع الأسف الشديد أنه لم يفهمها فهماً عميقاً ولم يكن جديراً بدراستها إلا كهاوٍ من الهواة.

وكان من حظ روما - للمرة الأولى والأخيرة مع الأسف - أن يوليوس قيصر - رئيس دولتها - قد أدرك الدور الأساسي الذي قام به العلم في إعداد الثقافة اليونانية. وقد أظهر ذلك في مناسبات كثيرة، حين كتب «حواشيه وشروحه» ولا سيما بعد اقامته في الاسكندرية إلى جانب كليوبطرا ورجوعه إلى روما مصمماً على وضع حد للفوضى التي غرق فيها التقويم اللاتيني.

وقد أثبتت الطريقة التي تم بها هذا الاصلاح تأخر

---

(١) كان يتخيل ان حدوث الصيف يكون باقتراب الشمس من الأرض، وبابتعادها عنها يحدث الشتاء.

الرومانيين عن اليونانيين. فاستعان يوليوس قيصر بفلكي يوناني من الاسكندرية يدعى سوزيجين لتحقيق هذا الإصلاح.

تحقق الإصلاح سنة ٤٦ ق. م وقُتل يوليوس بعد ذلك بسنتين في ٤٤ ق.م ورجع سوزيجين على التحقيق إلى مصر ولم يخلف وراءه شخصاً واحداً في روما جديراً بتطبيق التعليمات التي أعطاها بطريقة صحيحة، ولذلك أضاف الحكام الرومان خلال ثلاثين سنة وعلى نحو شديد من الدقة يوماً (كبيساً) كل ثلاث سنوات مع العلم أن العالم اليوناني قد أوصى باضافته في السنة الرابعة[١].

وحاول عدد قليل من الرومانيين في (العهد الامبراطوري) من أمثال سلس وسينيكا ولا سيما الجنرال بلين اشاعة ثقافة الشرق اليوناني في القسم اللاتيني من الامبراطورية اللاتينية اليونانية. ولا يسعنا أن ننكر جهود هؤلاء لفهم هذه الثقافة. لا سيما وقد أثبت، أحدهم، بلين، فضولاً علمياً جشعاً إلى

---

(١) ب- كودار، التقويم.

جانب اعجابه المخلص بالمخترعين والعلماء الهلينيين. ومن الممكن أن نعتبره واحداً من الرومانيين النادرين الذين آمنوا بنجاحٍ لا متناهٍ للمعارف الإنسانية واستحقوا اسم العلماء.

ولكن جهوده وجهود الحفنة من الرومانيين الذين حذوا حذوه، كانت على الأقل غير كافية لإيقاظ جمهور الشعب الروماني، الأمي، الذي لم يكن قد تخلص، بعد من بربريته البدائية، هذا إذا لم نقل بعقمها وفشلها فشلاً ذريعاً. حتى انهم فشلوا في كسب الارستقراطية الحربية لقضيتهم، تلك الارستقراطية التي لم تكن تسمح لها تقاليدها الرجعية بادراك أية فكرة جديدة[١]. وقد كان من الحماقة في نظر أكثر النبلاء أن يتصدى الواحد منهم: «لفتح مدرسة جديدة للفلسفة في أثينا أو رودس بدلاً من قيادة جيش بصفته قاضياً أو قنصلاً، أو تنظيم مقاطعة أو بناء مدن»[٢]. مع العلم أنهم كانوا يهزأون بالجنرال

---

(١) ب. برنا وا. ميالي، تاريخ العلم - العهد القديم.

(٢) شبنجلر - انهيار المغرب.

بلين الذي كان في نظرهم، وهو قائد الجيش، يتفرغ لمثل هذه التوافه من الأبحاث.

وقد سجل بلين ادراكه الواعي، النادر، بالنسبة لمعاصريه، لفشل العلم اليوناني في روما ووصفه بعناية ودقة. كتب يقول: «إن دهشتي شديدة للغاية، حين أرى في العالم القديم الذي شاع فيه الاضطراب وانقسم إلى ممالك كثيرة كثرة الأفراد، عدداً كبيراً من الرجال منصرفاً إلى دراسة أشياء صعبة جداً لا تمنعهم الحروب والخيانة، والقراصنة الذين يعترضونهم في كل الممرات من دراستها، وهم يفعلون هذا بنجاح عظيم، بالنسبة لأمكنة لم ينتقلوا إليها في حياتهم البتة، ومع ذلك فإن في مكنتنا أن نعرف عن بعضها بواسطة كتبهم أكثر مما نعرفه عنها بواسطة سكانها أنفسهم.

«أما اليوم وفي وسط السلام الذي يتمتع به العالم، وفي عهد أمير متحمس لازدهار أشياء الطبيعة والفنون، نجد على العكس من ذلك، أننا لم نعجز فقط عن اضافة شيء جديد إلى المكتشفات المحققة بل قصرنا عن بلوغ مستوى معارف القدماء»[1].

---

(١) أوردها سانت بوف في «أحاديث الاثنين».

ففشل العلم اليوناني في روما شيء لا خلاص منه. وبما أن اللاتينيين قد تعودوا منذ أجيال طويلة، ان يعتبروا مهنة الفنان أو الطبيب عملاً للعبيد، فقد كوّنوا، بحكم طبيعتهم، أشد الأوساط استعصاء على النجاح والتطور يمكن أن نتصوره.



وليس غريباً والحالة هذه أن يكون رجال العلم والفن الجديرون بهذا الاسم، من الهلينيين، خلال القرنين اللذين وضعت فيهما روما العالم تحت قدمها، كما كان الشأن في القرون الخالية. وبينما كان الرومانيون ينتجون هجناء من الشعراء والمحامين كان اليونانيون «لا يقفون فقط عند مستوى معارف القدماء» بل «يضيفون إلى المكتشفات المحققة». كانت الحضارة الهلينية في الاسكندرية، بصورة خاصة، في أوج عظمتها. أما مدرسة الطب التي أسسها من قبل أرزيسترات وحافظت على شهرتها ونجاحها فقد ولدت شيئاً فشيئاً علمين جديدين هما علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، هذا إلى جانب مدرسة المهندسين التي بقيت مزدهرة واتجهت في الكيمياء اتجاهات

جديدة بينما كان مانالايوس يضع في علم الرياضيات أسس «علم المثلثات الكروي».

فإذا صحت ملاحظة بلين فيما يتعلق بروما فإنها لم تكن ذات قيمة فيما يتعلق بالشرق اليوناني في القرن الأول من عصرنا المسيحي. كما أنها أقل شأناً من ذلك فيما يتعلق بالقرن التالي الذي شهد ولادة عبقريتين علميتين من أعظم ما عرف التاريخ: بطليموس وجالينوس. أولهما يوناني من مصر، وهو عالم شامل، قام بأبحاث فريدة في الفلك والضوء والجغرافيا. فكان كتابه «قواعد الرياضيات» مرجع الفلكيين خلال ألف سنة بعده. وكانت جغرافيته حجر الزاوية في علم الخرائط الحديث، أما فرضيته في نظام الكواكب فهي من أروع ما أنتجه العهد القديم.

وكان جالينوس يونانياً أيضاً، ينتسب إلى برغام في ايونيا، وقد حضر دروس مدرسة ارزيسترات في الاسكندرية. ثم أغرته روما في عهد مارك اوريليوس فاستقرّ فيها وكسب شهرة عظيمة باعتباره طبيب الامبراطور. ولم يخلف تلميذاً رومانياً ذا قيمة، مع العلم أن انتاجه الطبي قد أثار بعد ذلك في الشرق

عدداً كبيراً من العبقريات، فِعلَ بطليموس في علم الفلك، وأصبح له نفوذ واضح في دراسات العلماء المتأخرة من الإيرانيين والعرب.

★ ★ ★

أصابت العلم اليوناني أواخر القرن الثاني الميلادي أزمة حادة رغم تأثير جالينوس وبطليموس. وعجز هذا العلم عن التخلص منها، إذ لا يخفى أن الحياة العلمية في حاضرة كبيرة، تجد صعوبة شديدة في مقاومة الانهيار السياسي. فلم تعد أثينا ورودس والاسكندرية تتمتع بكونها عواصم مستقلة، وبدأت جهود مدارسها ومصانعها ومتاحفها تتأثر بذلك. ولئن بقي البعض منها محافظاً على شيء من ازدهاره فقد كان يفقد هذه الروعة البالغة التي يشيعها البلاط المحلي بفضل وسائله المالية التي كانت تحت تصرفه[١]. وقد حدث ما يحدثه الانهيار السياسي واحتلال العدو في العادة. فتزعزعت الثقة بمن كانوا حتى ذلك الوقت يتمتعون بها في نظر الناس وهم النخبة اليونانية. وطبيعي أن يكون ذلك

---

(١) ر. كروسا.

لأن آلات الحرب وعلم الهلينيين لم تستطع انقاذ الناس من غزوات الرومانيين والبارثيين. أفليس من المنتظر بعد ذلك أن ينمو الشك في القيمة الحقيقية لهذه الآلات والعلوم؟ وهنا قوي اعداء العلم والنجاح (وهؤلاء موجودون في كل العصور) وتضخمت صفوفهم بانضمام انصار كثيرين لمدرسة الشك التي كانت تتنكر لكل معرفة وتنزع الثقة بها.

أما الذين يهتمون بالطب فقد انضموا إلى مدرسة سكستوس امبريكوس التي دعت إلى نوع من «تجريبية» لا علمية، بعد الخيبة التي احسّوا بها اثر فشل علماء التشريح وعلماء وظائف الأعضاء في شفاء بعض الأمراض التي كانت تكثر باطراد.

كما نجحت المدرسة الفلسفية التي أسسها ابيقور من قبل للأسباب ذاتها وهي المدرسة التي كانت تستهدف غاياتها بمثل قول رجالها: «أُبسُطْ اسرعَ أشرعتك هرباً من العلم» «وان تحقيق السلام أفضل من المعرفة». وقد بلغ من كثرة أنصارها في القرنين الثالث والرابع حداً جعلها أشدّ خصوم اليهودية والمسيحية شرة، وهما الدينان اللذان بدآ ينتشران في العالم آنئذ.

وكما بعث فشل العلم اليوناني حماسة شديدة للمدارس الفلسفية اللاعلمية، فقد عمل على تجديد الروح الدينية التي تقرر الحقيقة التالية: «إذا كنا لا نستطيع أن نفهم، فإن من الخير أن نؤمن، ونتلقى الوحي الإلهي الذي كان يرضي عداوة الرأي العام الغرزية لكل تنبؤ علمي؟»[١] وقد كثر الهلينيون الذين قرفوا من أديانهم الخاصة فدخلوا افواجاً، بعد أن شكوا في قيمة العلم، في اليهودية. ولا سيما يونانيو انطاكية والاسكندرية وتدمر، أما في دمشق فقد اتى عصر كانت فيه النساء دون استثناء متهودات مع العلم أن الختان جزء من التدين بهذا الدين.

كما أفادت المسيحية يوم بدأ بولس التارسي دعوته من هذه الحركة الصوفية التي كانت تنمو كرد فعل ضد العقلانية اليونانية للقرون الغابرة. ونحن نعرف اليوم سرعة انتشار هذه الحركة. وهكذا أصبح معسكر اعداء العلم أشد قوة، رغم اصرار أنصاره على النضال في سبيله بشجاعة ومثابرة شديدة. وكان بعضهم ممن كونتهم المدرسة التي أسسها أواخر القرن

(١) آ. سوفي، التنبؤ الاقتصادي.

الثاني امونيوس ساكّاس من العلماء الجديرين بالتقدير، افلوطين وبورفيروس أولاً، ثم جامبليكوس الذين هاجموا المسيحيين بذكاء وكتبوا خلال معركتهم كتباً كثيرة أحدثت ما لم يكن ينتظره الناس. فقد غذت اللاهوت المسيحي بالمكتشفات العلمية اليونانية وتعاليم ارسطو.

وبعد أن انتصرت المسيحية ضمت هذا كله في القسطنطينية خلال زمن طويل ثم أطفأته. ولكنها في الوقت نفسه - وهذا ما يهمنا - ساعدت على نقل هذه المكتشفات والتعاليم إلى شعبي الشرق الأدنى اللذين أصبحا على رأس العالم المتمدين لقرون عديدة بعد فشل الرومان وانهيار اليونان. هذان الشعبان هما الفرس والعرب.

* * *

وبينما كان الغزو الروماني يندفع جامحاً بآثاره السيئة في القسم الغربي من العالم اليوناني، كانت في القسم الشرقي قبيلة إيرانية القبيلة البارثية - تغزو بلاد فارس شيئاً فشيئاً ثم قسماً كبيراً من العراق،

واطلق رئيسها على نفسه لقب الفرس التقليدي «ملك الملوك» وبنى عاصمة غير بعيد من خرائب بابل على الضفة الشرقية من نهر دجلة، في المدائن نحو (٥٠) ب.م.

وقد عجز الأباطرة الرومانيون رغم الجهود التي بذلوها، وكثيرة هي هذه، حتى في أوج قوتهم، عن القضاء على الامبراطورية البارثية. وقد كلفتهم هذه الامبراطورية رداتٍ دامية في مناسبات كثيرة، ثم خرجت سالمة من غضبتهم المركزة وتابعت تكوين نواة مستقلة أصيلة سيدور العالم الشرقي حولها وشيكاً.

أما حكامها الأولون: الملوك الأرساسيون فهم رغم كونهم إيرانيين، يتفاخرون بانتسابهم إلى الهلينية. ونحن نعلم اليوم أنهم كانوا في بلاطهم يحبون مشاهدة المآسي اليونانية المسرحية، في وقت كانت فيه هذه المسرحيات مهملة في روما حيث استبدلت بها مشاهد أكثر ابتذالاً وقسوة. ولما حلّ سلطان الملوك الساسانيين محل سلطانهم سنة ٢٢٤م حدثت ردة إيرانية ضد الهلينية وحاولت محو آثار الاحتلال اليوناني لاحياء التقاليد الأخيمينية. والحقيقة أن هذا

العهد هو عهد التخلص من الهلينية في الشرق كله.

حدث هذا بسرعة شديدة حتى أن اللغة اليونانية التي بقيت لغة الفرس الرسمية خلال ستة قرون توقفت بسرعة وفقدت حظوتها، وانسحبت لتحل محلها لغتا الامبراطورية الأخيمينية القديمة، «الآرامية» «والفارسية القديمة» اللتان تحولتا على التتابع، وبتطور بطيء، إلى «السريانية» و «الفهلوية» اللتين ظهرتا ثانية وحلتا محلها. وهكذا وجدت المملكة السلوقية نفسها مبعدة بواسطة امبراطورية فارسية جديدة أواخر القرن الثالث من عصرنا المسيحي تذكرنا بامبراطورية داريوس، عاصمتها المدائن، حاضرة اللغة السريانية.

ثم أعقب هذا التراجع الهليني الواضح في فارس، والذي نظمه الملوك الساسانيون إلى حد ما تراجعٌ آخر مثله متأخر عنه وأقل قسوة منه في الشرق الأدنى كله تقريباً حتى سوريا وفلسطين، أي في قلب الامبراطورية اليونانية الرومانية.

فلنتذكر على سبيل المثال، الثورة التي سمحت

لتدمر الغنية في أواسط القرن الثالث الميلادي بفضل تجارتها مع الامبراطورية البارثية وموانيء الشرق، بأن تكون خلال عدة سنوات عاصمة لمملكة مستقلة شرقية حكمها امراء عرب كأذينة وزنوبيا. ولنتذكر فلسطين، حيث كوّن الشعب الاسرائيلي نواة كانت أمينة للفرس ممتنعة عن الذوبان في الشخصية الهلينية. وقد استطاع الأباطرة الرومانيون حل هذه النواة باستعمال قسوة غير مشرفة ومع ذلك فقد عجزوا عن إيقاف حركة التخلص من الهلينية، وهي التي نجحت في جبال فارس من قبل.

وعلى ذلك فقد اضطرت اليونانية أن تتنازل عن مراكزها الواحد تلو الآخر للسريانية في كل ما سوى الأناضول وبيزنطة بصورة خاصة حيث بقيت سائدة متغلبة. وقد نتجت عن ذلك ضرورةُ نقلِ الكتب اليونانية إلى اللغة السريانية. فابتدأت حركة نقل وترجمة طويلة الأجل، ابتدأت في الرها شديدةً ناشطة.

والرها مدينة تقع على حدود العالمين اليوناني والفارسي، كانت مركزاً لمدرسة فلسفية لاهوتية

اشتهرت منذ أواخر القرن الثاني الميلادي، ثم أصبحت عاصمة المسيحية في الشرق خلال القرن الرابع.

في هذه المدينة نُقلت إلى السريانية، لَيس فقط، كتابات آباء الكنيسة اليونانيين، بل كذلك كتابات العلماء الوثنيين ثم مؤلفات ارسطو بصورة خاصة. وقد كانت هذه المؤلفات والكتابات تُعَلَّم باللغة اليونانية ثم بقيت موضع الدرس والتعليق والتحشية في اللغة السريانية.

وانتقلت الحركة من الرها إلى الاسكندرية حيث كتب بعض الأطباء والعلماء الافلوطينيين (من بينهم حنا الأفامي وسرجيوس الرأس عيني) عدداً كبيراً من المؤلفات الهلينية.

ووجدت السريانيةُ نفسَها، وهي في أصولها لهجة آرامية بسيطة، لغةً ارتفعت إلى مستوى اللغات المكتوبة. وبمناسبة فريدة، أصبحت لغة علمية دولية في أواسط القرن الخامس الميلادي. وتسنى للجمهور السامي من العالم الشرقي، وهو الذي كان يجهل

مكتشفات اليونان العلمية، أن يبدأ بالتعرف إليها. فهضمها سريعاً بفضل ظروف مواتية أمَّنَت انتشار هذه المكتشفات حتى قلب الامبراطورية الفارسية.

لقد اضطهد بوستنيان، الامبراطور البيزنطي، فرقة المسيحيين النساطرة فمدارس الفلاسفة الوثنيين ودفعهم جميعاً إلى الهجرة والالتجاء إلى بلاد فارس في عهد الحكام الساسانيين. وذلك بعد أن أصبحت المسيحية في عهد قسطنطين (قبل ذلك بقرنين) دين الامبراطورية اليونانية - الرومانية الرسمي وتبنتها الكثرة الساحقة من الشعوب التابعة لها. ولما ظهرت الهرطقات النسطورية واليعقوبية وجدت نجاحاً رائعاً في كل من مصر وسوريا. فكأن سكان هذه البلاد كانوا يشعرون بأنهم حين يتبنون كنيسة متميزة، يجدون استقلالهم ثانية. وقد ارغمت بيزنطة على التسامح مع اليعقوبية التي أصبحت شديدةِ القوة في مصر ولكنها حاربت النظرية النسطورية في سوريا بعنف بالغ. ولما سجن نسطوريوس المتوفى عام ٤٣٣ م وهدمت مدرسة انطاكية النسطورية، عزم الفريق الأول من أنصاره على اجتياز الحدود المجاورة والاختباء في بلاد فارس،

فاستقبل باحتفال خاص رغم أن دين الساسانيين الرسمي هو المزدكية الزرادشتية.

ثم تحول الاضطهاد قاسياً بعد ذلك بخمسين سنة في عهد يوستينيان المتوفى سنة ٤٨٩ م. وحرّمت النسطورية وهدمت مدرسة الرها. فالتحق أساتذتها الأخيرون بأنصارهم في فارس، في نصيبين أو جُنْدَيْ سابور حيث استقبلهم الملوك الساسانيون وأجاروهم. وقد حملوا معهم في هاتين المدينتين طب اليونان، والأرسطية والثقافية المسيحية التي سيلعب كل منها دوراً مهماً في امبراطورية فارس إلى جانب الثقافة الإيرانية المزدكية.

وفي سنة ٥٢٩ م جاء فريق آخر من اللاجئين اليونانيين يحتمي ببلاط كسرى انوشروان الأول المتحرر: وقد كان في هذه المرة مؤلفاً من آخر علماء مدرسة اثينا الوثنية، التي استطاع المسيحيون ان يحصلوا من يوستنيان - بفضل قوتهم المطردة في النمو - على أمر باغلاقها. وقد اشتمل هذا الفريق خاصة؛ على القائد دامسكيوس، وسمبليسيوس الصقلي؛ شارح ارسطو، وبريسياموس الليدي الذي

اشتهر بدراسته لأحوال المد والجزر. ونحن نعرف اليوم أن الحاكم الفارسي قد وضع بين أيديهم معضلات كثيرة (وصلت الينا اليوم). ورغم أن مُقامهم في بلاده لم يتجاوز سنوات قليلة فهناك ما يجعلنا نظن بأن تأثيرهم فيها كبير جداً وقد كمل وأيد لحسن الحظ عمل المهاجرين النساطرة.

وبفضل هؤلاء العلماء نظمت المدارس الفارسية على طراز مدارس أثينا والاسكندرية وحملت تقاليدها. كما أن كتباً يونانية كثيرة قد نقلت بواسطتهم إلى الفهلوية وانتشرت الثقافة اليونانية بسرعة في بلاد فارس.

وإذا كان لهؤلاء المسيحيين النساطرة والفلاسفة الوثنيين فضل القيام بدور رئيسي في إيقاظ فارس أوائل القرون الوسطى وبعث نوع من النهضة فيها، فإن من الخطأ الظن بأنه العامل الوحيد الذي أفادت منه الجامعات الساسانية. فقد أمر كسرى بنقل الكتب الهندية المكتوبة باللغة السنسكريتية، التي حملها إليه سفراؤه من الهند، إلى اللغتين السريانية والفهلوية. وبذلك قوبلت في جامعة جندي سابور النظريات

الهلينية الطبية بنظريات الأطباء الهنود. وتسنى لطلاب اللغة السامية أو الإيرانية الاطلاع على مؤلفات العلم اليوناني الرئيسية واحدث نجاحات العلم الهندي.



٢ - سر العلم الهندي

القرن السادس بعد الميلاد

تعتبر الهند، في نظر المؤرخ، أكثر البلدان إثارة للخيبة. فهو لا يفقد فقط ملكية أي نص هندي أو وثيقة أو يوميات تاريخية عما قبل الغزو الإسلامي، بل يلاحظ - كلما اهتم بموضوع هذه البلاد - أن الهنود يتميزون بعقلية لا تاريخية خلافاً للمصريين أو الساميين الموهوبين من الناحية التاريخية بصورة استثنائية. فهم يؤخذون بالغيبيات أكثر منهم بالحقيقة ولا يهتمون بالعلاقة بين الحوادث في نفسها. وقد قيل بحق «إن تفكيرهم نفسه كان يظهر كارهاً للتاريخ»[1].



---

(١) ماسون اورسال، الهند القديمة والحضارة الهندية.

فما هو مصدر هذا النقص؟ هل يرجع إلى نقص في الفضول وظيفيّ عضوي. وبعبارة أخرى وراثي؟ أم يجب اعتبار التقليد الديني الفاسد سبباً لذلك؟ إن من الصعب علينا اعطاء رأي في هذا الموضوع. والمعقول الممكن أن هذين العاملين قد عملا في الوقت نفسه إن لم يؤثر أحدهما في الآخر.

ومهما يكن، فإن النتيجة المؤسفة لهذا النقص التاريخي هي أن تاريخ الهند معروف معرفة فاسدة حتى أواخر الألف الأولى من العصر المسيحي. ولئن استطعنا بفضل أقاصيص المسافرين اليونانيين والصينيين التوصل إلى تركيبه ثانية بصورة تقريبية، فهو ما يزال موضعاً لكثير من الأسرار، يثير أحدها على الأقل اضطراباً لا متناهياً.

★ ★ ★

نحن نعلم اليوم ان حوض الاندوس في الألف الثالث قبل الميلاد كان مهداً لحضارة شبيهة بجارتها

التي كوّنها السومريون في الفرات الادنى. وقد اغرقت غزوة القبائل الآرية الآتية من شعوب الاندوس، اوائل الألف الاولى قبل المسيح ثم امتدت حتى حوض الكانج حوالي القرن السادس قبل الميلاد، وهي غزوة لا نعلم عنها غير القليل.

وعمرَ هؤلاء الآريون، فيما نظن، القسم الاكبر من الهند، وفرضوا في كل الاحوال لغتهم التي كانت فرعاً من الاصل اللغوي لكل من اليونانية والفارسية. كما حملوا معهم استعمال الحديد وتربية الحصان. وبما ان مدن البنجاب الهندوسية قد تجمعت تبعاً للعادات الآرية في جمهوريات صغيرة ارستقراطية او إمارات، فإنها لم تستطع الثبات بجد امام الغزاة الاخيمينيين والمقدونيين. فخضعت اولاً، كما خضعت معها الهند جميعها، للنفوذ الفارسي خلال قرنين. وبعد الاسكندر الكبير، ولا سيما بعد ولاية ماننِدر في بكتريان، خضعت للنفوذ اليوناني حتى القرن الثالث المسيحي.

واخيراً، وبعد أن تحررت من احتلال أجنبي دائم على التقريب، خلال ستمائة سنة، استطاعت الهند ان تحقق وحدة كاملة، او على الأقل، وحدة نسبية. ومن

الضروري القول إن جغرافيتها الطبيعية لا تسمح بذلك بسهولة.

توحّد حوض الكانج مع قسم كبير من بلاد الدكن في امبراطورية شاسعة بواسطة كاندرا جوبتا الاول، احد الامراء الوطنيين وهو الذي حكم امبراطورية «جوبتا» التي عاصرت معارك المملكة الساسانية وامبراطورية بيزنطة. فبقيت على التقريب قرنين من الزمن (٣١٨ الى ٤٨٠)، يحكمها حكام ممتازون اتصفوا بالروح الانتقائية في مادة الدين لانهم شجعوا ديني العصر الكبيرين: البوذية والبرهمية.

والظاهر ان هذه المرحلة كانت العصر الذهبي لتاريخ الهند. فرسمت في تلك الفترة رسوم أدجانتا وباج، في جودجرات، كما كتبت في أوجين مآسي كاليداسا المشهورة. وشعت في هذه الفترة أيضاً بكل روعتها مدينتا «باتاليبوترا» و «أيودا» عاصمتا كوندرا جوبتا الاول، وولده سامادرا جوبتا على التتابع. ومن المؤسف ان هذا العصر الذهبي الذي اعطى اسمه في الفن لطراز «جوبتا» قد اعترضته اوائل القرن السادس الميلادي غزوة الهون الهفتاليين

التي طبعت هذه المرحلة من التاريخ بصورة مؤلمة.

وقد اصبح الهون البرابرة سادة وادي الاندوس، ثم تقدموا في اتجـاه الكانـج، بعـد ان اكتسحوا البكتريان وهدموها، وسجلوا انتصارات عديدة على الجيوش الساسانيـة. والظاهر ان ولاة «جوبتـا» المتأخرين لم يشكلوا عقبة جدية امام تقدمهم. اما المقاومة الحقيقية فقد صدرت على ما يقال عن أمراء مختلفين لامارات محلية، من مثل ملك اوجين او ملك فالبي، أضف اليهما احد المهراجات من ضواحي دلهي الـذي تسنـى لابنه «هورسا» ان ينجح في بناء امبراطورية جديدة مرة ثانية.

وقد اتجه الهون سنة ٥٥٠ م الى كشمير، تاركين وراءهم قسماً من الهند خربوه في رجعتهم، فذبحوا ثلثي سكان جاندارا والبنجاب واستعبدوا الثلث الباقي وقد حدث هذا كله بعد ان هُزِم الهون في الظن الغالب بين ٥١٠ م و ٥٣٠ م.

وفي سنة ٤٧٦ م ولد في باتاليبوترا، عالم ممتاز، يدعى آريا باتا، نجهل مع الأسف الشديد تفاصيل

ترجمة حياته التي ازدهرت على التأكيد خلال الغزوات الهونية واعتبره الشراح مكتشف التحليل الجبري وزعموا انه عرف العدد (ط) بأدق مما عرفه ارخميدس، واستعمل النظام العشري على الظن الغالب.

والذي نعرفه اليوم هو أن الهند قد خضعت للثقافة اليونانية خلال ثلاثة قرون، كما ندرك خصب الجهود التي بذلها ولاة جوبتا المختلفون ولا سيما سامادرا جوبتا لا لتشجيع الآداب والفنون فقط، مما نحمده لهم على كل حال، بل لبعث العلوم. وهو أندر على التحقيق. والحقيقة ان ظهور هذه البوادر في مثل هذا العصر المضطرب (القرن السادس الهندي) وفي مكان قائم - جغرافياً - خارج العالم الفكري للقرون السابقة، هو من الروعة والادهاش والمفاجأة الى ابعد حدود الامكان.

وما يزال سر تفتح عبقرية عالم كآريابهاتا واختراع الصفر الذي أحدث ثورة في عادات العالم الحسابية والتجارية، مضاعف الغموض. واذا كانت اقدم الاعداد الهندية التي نعرفها لا ترجع الى ابعد من

القرن الثامن الميلادي (اعداد ديفنانا جاري) فان عندنا ما يثبت جدياً استعمال الاعداد التسعة الاولى منذ أواخر القرن الثاني الميلادي، ثم أُلحق الصفر بها حول أواخر القرن الخامس اي في العهد الذي كان يعيش فيه آريا باتا.

فإلى مَنْ يرجع فضل هذا الاختراع؟ ليس في هذا الجانب ما ينير السبيل. وليس اكثر معقولية ولا منطقية من ان ننسب هذا الاختراع الى التجار الهنود، وان نفترض بأنهم، ابتغاء الاختصار والتيسير، خطر لهم تحويل الرموز العددية الى عشرة فقط، فعل زملائهم الفينيقيين من قبل، الذين خطر لهم في قرون خلت، اختصار الرموز الادبية للغاية نفسها. ولكن هذا الاكتشاف العددي العشري يذكرنا بآخر مثله، ابعد كثيراً منه في القدم، كان يستعمله السومريون في الفرات الادنى في الالف الثالثة قبل المسيح.

كان النظام السومري يعتبر وحدته ستينية لا عشرية مما يعقده ويجعله غير صالح للاستعمال، ولكن التشابه بينهما في المبدأ يظهر لأقل الأنظار تنبهاً.

وعندما نعرف ان الحضارة السومرية كانت تمتد عبر وادي الفرات الادنى وشواطىء الخليج الفارسي اي في المناطق التي اتصلت دائماً بالجودجرات في تجارة ناشطة، فليس ما يحول دون التأمل في هذه المصادفة الفريدة، وان نتساءل عما اذا لم يكن العدد العشري من وحي العدد الستيني السومري الذي نُقل الى الهند وحُسِّنَ بواسطة التجار او الفلكيين. فقد كتب أريا باتا في علم الفلك. واذا لم يلعب ما كتبه في تنمية هذا العلم دوراً كبيراً، فإنه يحتوي على مقاطع ذات قيمة خاصة كما في تصريحه بان الكواكب ثابتة وان الارض متحركة[1] وقد تابع براهما جوبتا في اوجين اعماله الدراسية في القرن السابع الميلادي. والظاهر ان كاليداسا قد اصبحت آنذاك، منذ غزوة الهون الهفتاليين، اكبر مركز ثقافي في الهند. فلمع كل من الفن والثقافة المنسوبين الى ما بعد عهد جوبتا

---

(١) «كالمراكبي الذي يرى الشاطىء متجهاً إلى جهة مضادة حين يسير في ماء النهر مع العلم أن الشاطىء ثابت لا يتحرك. هكذا نرى النجوم الثابتة متجهة في خط مستقيم من الشرق إلى الغرب في خط لانكا» أريا أتيا IV ٩ - مجموعة سنسيكريتية، لويس رنو.

(post – gupta) في شبه الجزيرة كلها، في كانوج من مملكة هورسا الكبيرة، وبلاد مهرات من امبراطورية تشالوكايا المنافسة او في كاتيا فار من مملكة فالابي التي اغتنت بتجارتها مع عرب اليمن. وقد كان الرسامون يزينون برسومهم الرائعة مركز أدجانتا، الى جانب الروائيين الماهرين الذين كانوا يكتبون كتباً ثمينة. وقد بلغت شهرة الاطباء الهنود ما وراء حدود الهند حتى جامعات الفرس، حيث كانت مؤلفاتهم تدرس وتقابل بمؤلفات الاطباء اليونانيين بعد ان تنقل من السنسيكرية الى الفهلوية او السريانية، كما عرفنا ذلك من قبل.

هذا هو القليل الذي نعرفه عن تاريخ القرون الذهبية الهندية حين كانت الهند في صفوف الحضارة الامامية، رسمناه بسرعة موجزة. وهو كما نرى ذو فجوات كثيرة ومعضلات مثيرة لا تقل عنها كثرةً.

فاذا ثبت لنا ان النتائج التي انتهى اليها آرياباتا وبراهما جوبتا واتباعهما في علم الجبر، ذات قيمة خاصة، وان نظام الحساب العشريّ الذي استعملوه قد احدث ثورة في علم الحساب، واذا كنا لا نشك في ان

الكيميائيين والمعدنيين الذين عاصروهم قد اخرجوا مكتشفات تقنية رئيسية، فإن مصدر هذا العلم ما يزال في نظرنا سراً غامضاً.

وقد نعزى بنسبته الى الاحتلال اليوناني الذي استطاع خلال قرون كثيرة ان يطبع الهند الشمالية بطابعه الخاص. فالعلم والفن يسيران غالباً في الطرق نفسها، كما ثبت ان النحت اليوناني كان ذا نفوذ مسيطر في تطور التمثال الهندي. فليس من مصدر لنموذج بوذا الاتباعي غير الطراز اليوناني[1]. وهناك شواهد كثيرة ترد مؤيدة لهذا الرأي كالتشابه الذي نجده بين الاعداد الهندية (ديفانا جاريس) وبعض حروف من أبجدية باكتريان الهندية- اليونانية، او ما نعرفه اليوم متأكدين، من ان أرياباتا- تبعاً لما اوردناه من إنتاجه- كان على علم بنتائج العلم اليوناني الرئيسية.

ومع ذلك فالظاهر لنا أن القول بتأثير الثقافة اليونانية، غير كاف، لتفسير الازدهار العلمي خلا

(١) ر. كروسا، قائمة التاريخ.

هذين القرنين من التاريخ الهندي. فان ظهور عبقريات من مثل أرياباتا وبراهما جوبتا لا يفسر الا اذا قررنا وجود ثقافة كامنة قديمة شبيهة بالثقافة السورية. وبفضل هذا التقليد الوطني الى جانب التقليد اليوناني استطاع العلماء ورجال الفن ان ينشئوا ما انشأوه في عصر سمحت لهم فيه حكومة تحررت بصورة خاصة من الناحية الدينية، بتنمية روح النقد والبحث عن الحقيقة الى حد ما.

وقد اختفت البوذية من الهند مع الاسف الشديد، بعد موت هورسا سنة ٦٤٧ م، شيئاً فشيئاً، فأخرجها رد فعل برهماني رجعي، امتص جانباً منها، وكوّن مع الزمن ما يدعى بالهندوكية. فما هو السبب في ذلك؟ أهو التأثير الفاسد لهذا الدين المتشائم؟ أم هي نتيجة لسوء تغذية مزمن زاد من خطورته جوٌ فاسد؟ نحن نجهل ذلك! فلنقتصر اذن على ان ندرك توقف نجاح المعرفة في الهند ابتداءً من هذا العصر، وأن سكانها لم يشاركوا من بعد مطلقاً في إعداد حضارتنا بطريقة قيمة.

٣ - الغزو العربي

(القرن السابع بعد الميلاد)

بينما كان العالم اليوناني ينحسر من الناحيتين السياسية والفعلية، تاركاً وراءه حقولاً شاسعة أخصبها بعقليته، وبينما بدأ العالم الهندي يجف ماؤه بعد ان حمل معه بعض نجاحات في حقل المعرفة، كانت فارس في اوائل القرن السابع الميلادي تظهر على الضد من ذلك، في يقظة عقلية، لا سيما وهي واقعة تماماً بين اليونان والهند اي في نقطة ارتكاز العالم المتمدن. كان نوع من لقاح متبادل بين العلم اليوناني والعلم الهندوكي، وهي عملية ممتلئة بالوعود، تظهر وكأنها تعدّ رعايا امبراطورية- هي في تحررها كتحرر امبراطورية الساسانيين- لحمل شارة الانشاء والمزج لهاتين المعرفتين.

ولكن الفرس لم يقوموا بهذا الدور، او عله، الأقل

لم يشاركوا فيه الا بطريقة غير مباشرة وفي وقت متأخر جداً. والحقيقة ان الامبراطورية الساسانية، بعد ان كسبت امجاداً قصيرة المدى فاحرزت انتصارات باهرة على الامبراطورية اليونانية، ونجحت في انتزاع سوريا وفلسطين ٦١٤م ثم الاسكندرية ٦١٨م، تراجعت منهزمة بعد ذلك بثماني سنوات أمام جيوش هرقل اليونانية وانهارت عسكرياً وسياسياً بعد ان انهكها هذا النضال الشديد.

فليست السريانية أو الفهلوية، اللغتان الوطنيتان، هما اللتين كانتا ستفيدان من هذه الحركة العقلية الكبيرة التي بعثت الحياة في جامعات الرها، وجندي سابور والمدائن، كما انها لم تكن ايضاً اللغة الهلينية، رغم انتصارات الجيوش البيزنطية، ولكنها لغة شعب كان يعيش حتى هاتيك الأيام خارج العالم المتمدن، ولم يكن شيء يدعوه في الظاهر الى القيام بهذا الدور العظيم الذي كان سيلعبه في تاريخ الحضارة؛ إنه الشعب العربي.

نحن نرتكب خطيئة فاحشة حين نتصور عرب ما قبل الاسلام بدواً فقراء نصف برابرة لا يغتذون الا

بالالبان. فقد كانت كثرتهم الغالبة تسكن مدناً غنية في اليمن على الاقل ان لم يكن في الحجاز. وكانوا على اتصال دائم منذ قرون طويلة، وبصورة متتابعة، بالمصريين فالاشوريين واليونان والفرس والهنود. أغنتهم تجارة العربية السعيدة بالبن والبخور ومنتوجات الهند التي استقلوا بها منذ انهيار الامبراطورية اليونانية - الرومانية. وكانت لغتهم هي الفصحى التي استعملها عدد كبير من الشعراء المجددين، كما رأينا أذينة - احد امرائهم - يحمل لقب امبراطور روماني.

اما البلاد الآهلة بهؤلاء العرب فقد كانت خاضعة في اواسط القرن السادس الميلادي لمؤثرين مختلفين يتناحران فينتصر احدهما على الآخر بصورة دورية: اولهما المؤثر الفارسي الذي كان يتمثل ببعض العناصر اليهودية، وثانيهما المؤثر اليوناني الذي كان يسنده المسيحيون.

وحدث آنذاك حادث لا يلفت دائماً انتباه المؤرخين. انه دخول احد ملوك اليمن في اليهودية ثم ابتداؤه باضطهاد المسيحيين وإثارة الأحباش، بتأثير

من البيزنطيين، الى تنظيم حملة ثأرية اخضعوا بها اليمنيين الذين استغاثوا بجارهم الفارسي القوي، الملك الساساني كسرى الأول. فحررهم كسرى بسهولة من نير المسيحيين الأحباش سنة ٥٧٠م . وكانت لحملته اهمية خاصة فاصبحت الاتصالات الفارسية العربية اكثر توثقاً من ذي قبل. منها ان الفرس من افراد جيش كسرى الذين اعجبتهم اليمن قد بقوا فيها واتخذوا لأنفسهم زوجات عربيات. ومنها ان الطلاب العرب قد تابعوا دراساتهم في جامعات فارسية ولا سيما جامعة جندي سابور. هذه الاتصالات التي سمحت للعرب بتقدير الحضارة الساسانية وتبني طراز الحكم الفارسي وأساليب الفرس في القتال، هي التي تفسر جزئياً انتصارات العرب العسكرية بعد ذلك. فكانت ارهاصاً بحدوث الحضارة العربية الفارسية التي ازدهرت في بغداد بعد ذلك بقرنين من الزمان.

★ ★ ★

وبما أن أغلب العرب في القرن السابع الميلادي كانوا وثنيين لقلة اقبالهم على المسيحية واليهودية رغم

الجهود التي بذلتها دعاية كل من هذين الدينين، فقد أقام محمد الإسلامَ ديناً موحداً جديداً، اقتبس به عناصر متنوعة من الأديان المحلية إلى جانب المزيج الذي اقتبسه من المسيحية واليهودية. وقد استندت هذه الديانة إلى نظرية أخلاقية سياسية بسيطة يسهل فهمها وتستجيب لحاجات العرب. وبفضلها تحققت وحدة القبائل التي كانت متجزئة حتى هاتيك الأيام.

وبعد وفاة محمد، تابع حموه أبو بكر، ثم الخلفاء الذين انتخبوا بعده حمل رسالته وأشاعوا نظريته. وقد وجدوا ظروفاً مناسبة- وضروري أن نقول ذلك- أنهكت فيها المعركة الضارية كلاً من امبراطوريتي اليونان والفرس. وكان النسطوريون المسيحيون واليعقوبيون في سوريا وفلسطين ومصر الذين خضعوا ثانية لنير هرقل سنة ٦٢٦م بعد أن حررهم الفرس فترة من الزمن، وأرهقتهم الضرائب، وتناولهم الاضطهاد على تفاوت، متهيئين للثورة واستقبال العرب بعد ذلك بثماني سنوات كفاتحين محررين.

غزا العرب فلسطين وسوريا البيزنطيتين دون

مجهود كبير بقيادة الخليفة عمر سنة ٦٣٤ م. وفي سنة ٦٣٧ م سحقوا الفيالق الفارسية وهدموا المدائن، العاصمة الساسانية، ثم أنهوا غزو العراق وفارس واستولوا أخيراً على مصر سنة ٦٤٣ م. وبذلك قضوا في أقل من عشر سنوات على الامبراطورية الفارسية الممتازة وانتزعوا من الامبراطورية اليونانية أجلّ مقاطعاتها، كما أشرفوا في الوقت نفسه على طريق الحرير والورق والتوابل، وسيطروا على القسم الأكبر من العالم المتمدن.



والحق أن إدارة مناطق بعيدة كثيفة السكان متنوعة كسوريا ومصر وفارس مهمة لم تلبث أن ظهرت متعبة مضنية.

وقد أغرت المدن الغنية ليس فقط اليمنيين المدنيين الذين كانوا يمثلون غالبية الجيش العربي بل كذلك البدو من زعماء الحجاز. فوجب أن ينتقل مركز الثقل على التتابع إلى كل من هذه البلدان الثلاثة، فكان لكل منها النفوذ المسيطر على الخلافة والذهاب بفخر امتلاك مركزها.

ولم يلبث التنافس الشديد بين سوريا والعراق أن ظهر بمناسبة معركة سياسية بين علي، صهر محمد ﷺ، وكاتب النبي، معاوية، وهو زعيم إحدى الأسر الارستقراطية من مكة، وكل إليه أمر حكومة سوريا. فاكتسب فيها منعة بعد عدة سنوات من استقراره في دمشق. حدث هذا كله بعد عشرين سنة من الغزو الكبير.

وقد أيدت سوريا حزب دمشق العربي وهي التي كانت تطمع منذ قرون طويلة في استرجاع استقلالها ففشلت في الظفر به رغم جهود زنوبية المتتابعة. أما العراق فقد خص بتأييده خليفة المدينة (المنورة). وقد قتل هذا الخليفة وقتلت معه عائلته رغم انتصاره العسكري الحاسم وظفرت سوريا نهائياً، وحمل معاوية الأموي لقب الخلافة وجعل دمشق عاصمته سنة ٦٦٠ م

كان لانتقال الخلافة من المدينة إلى دمشق، أي إلى المكان الذي كان قبل ذلك بثلاثين سنة جزءاً من الامبراطورية اليونانية، نتائج في تطور الحضارة. فبينما كان الخلفاء في المدينة يستعينون في إدارتهم بالفرس خضع معاوية وخلفاؤه من بعده في دمشق

للعادات اليونانية. فحوّل الخلفاء الأمويون جمهورية المدينة الدينية العربية، إلى امبراطورية حقيقية سورية شبيهة في كل نواحيها بتلك التي كانت تحلم بها زنوبية من قبل، وذلك بفضل تحررهم الفكري، وضعف عصبيتهم الدينيـــــــة، مذكرين بأسلافهم الملوك السلوقيين. فضربوا الدنانير الذهبية على نسق الدراهم البيزنطية وجعلوا الخلافة وراثية بعد أن كانت انتخابيـة، واستعملوا عمالاً كثـيرين من اليونـان والسوريـين، وأسندوا إلى المسيحيين مركز الوزير الأول.

ولكن ضعف إيمانهم لم يحل دون متابعتهم الحرب المقدسة ضد الكفرة. وهي حرب كانـت تضخم امبراطوريتهم وتوثق أطرافها، فغزوا أفريقيا الشمالية كلها ثم إسبانيا سنة ٧١١ م، وتغلغلوا في غابات الغال البعيدة حتى وصلوا إلى ليون سنة ٧١٩ م. ولم يتوقفوا إلا في بواتييه سنة ٧٣٢ م، أمام مقاومة البرابرة[١]. وفي الوقت نفسه كانت جيوش أخرى تستولي على حوض «الأندوس» ثم بخارى (٧١٩ م). وسجلوا على الصينيين انتصار (طلس) الرائع الذي سمح بإلحاق

مقاطعة ما وراء النهر الغنية لسنوات طويلة بالعالم الأبيض سنة (٧٥١ م). وثبتت بيزنطة وحدها أمامهم مرتين (٦٧٨ و ٧١٧) بفضل النار اليونانية، وهو سلاح مخيف وضعه مهندس كيميائي من مدرسة الاسكندرية يدعى كالينيكوس فكان أروع نجاح للعلم اليوناني.

وإذا لم يستطع العرب الظفر بالعاصمة نفسها فقد استولوا على أهم ممتلكاتها، وكانت امبراطوريتهم أكبر من امبراطورية الاسكندر، بل أكبر من امبراطورية الرومانيين، تمتد من شواطىء المحيط الأطلسي إلى أواسط آسيا. «فكأن الثورة العربية لم تحدث إلا لجعل دمشق عاصمة للشرق»[٢].

وبقيت كذلك قرابة قرن من الزمان.



---

(١) الفرنكيون في نظر العرب برابرة.

(٢) ر. كروسا، حضارا الشرق. الإسلام.

٤ - اتصالات العرب الفكرية الأولى

مع اليونان والهنود

(القرن الثامن بعد الميلاد)

اتخذ الخلفاء الأمويون، بعد الغزو، سياسة التعريب القريبة الشبه بالسياسة الهلينية لملوك العهد السلوقي اليونانيين، التي اتخذوها في المقاطعات نفسها قبل ذلك بألف سنة. ولكن سياسة الأمويين كانت أنجع أثراً من سياسة المقدونيين بفضل المساعدة الجدية التي حملها إليهم الدين الإسلامي في الوقت المناسب.

فالإسلام لم يحتج إلى مجهود كبير يبذله للظفر بأكثر الوثنيين الذين كانوا يقاومون حتى عهدئذ مواعظ اليهود والمسيحيين. وذلك بفضل احتوائه على مزايا الأديان الشاملة، بالإضافة إلى بعض الميزات المغرية، من مثل تسامحه الكبير في حقل الشهوات الجنسية.

فدخل الناس فيه أفواجاً.

والحقيقة أننا يجب أن ننسب سرعة انتشار لغة محمد الامبراطورية إلى الاعفاءات من الضرائب وبعض الميزات المادية الأخرى، لا إلى القرار الذي جعل به الأمويون اللغة العربية إجبارية في الدواوين الرسمية.

إن تحولا في مثل عمق هذا التعريب وهذا الشيوع الإسلامي، يعقب طرد الهلينية المنظم الذي أشرف عليه الملوك الساسانيون، حادث خطير في العالم المتمدين. فانتشرت إثره فوضى عامة في لغات وأديان الشرق الأدنى. فكان في هذه الحقبة، وفي بعض المدن، يونانيون يكتبون بالسريانية، بينما كان المسيحيون يكتبون باليونانية، واليهود بالعربية. كما كان من المألوف أن يكون بعض الساميين مسيحيين، وبعض الأطباء الإيرانيين، يهوداً في أغلب الأحوال وهم آريون محض.

وإذا كانت الفوضى اللغوية لم تشجع الاخراج الأدبي، وطبيعي أن نظن ذلك، فإن التبادل الفني والفكري كان شديد الغزارة. ففي هذه الحقبة، نشأ

فن البناء العربي، بقيادة حكومة الخلفاء المشجعة التي كانت تجد الوقت الكافي لحماية الفنون في فترة ما بين كل غزوتين. وقد تميز هذا الفن منذ البداية بذوق ممتاز لتمخضه مباشرة عن فن البناء اليوناني المسيحي[1]. فالتطورات التي جعلت من الكنيسة المسيحية مسجداً تظهر على نحوٍ مادي ملموس ضخامة التأثير اليوناني، وفي الوقت نفسه تبين قيمة ملكات التكييف التي تميز بها الفنانون الاسكندرانيون الذين استعملهم الخلفاء في دمشق.

أما في الحقل الفكري فإن الغزو العربي لم يحدث أي انقطاع مفاجيء في التعليم أو في الأبحاث. وإذا كان آخر فلاسفة الاسكندرية قد هاجروا إلى بيزنطة، فإن الأطباء قد بقوا فيها، ومن بينهم بولس الأوجيني، الذي نقلت مؤلفاته إلى العربية بسبب ذلك. وبما أن معارف هؤلاء الأطباء الاسكندرانيين والسوريين ظهرت بسرعة أكثر رقياً من معارف

(١) في جامع دمشق أثر بيزنطي هو من الوضوح بحيث أنه اعتبر - أي الجامع - حتى وقت قريب كنيسة حولت كما هي للعبادة الإسلامية (جـ. سوفاجيه، فن البناء الإسلامي في سوريا).

الأطباء الرسميين العرب فقد أقبل الأعيان العرب على استشارتهم، وتكليفهم تربية الشباب بغضّ النظر عن دينهم المسيحي واليهودي. كما كانت توجد مدارس يونانية صغيرة في دمشق، وأنطاكية، والرها، ورأس عين، تتابع فيها نقل المخطوطات اليونانية إلى السريانية.

أما في الرها والبلاد الساسانية فقد كان النسطوريون المسيحيون يتمتعون بتقدير خاص، وذلك بفضل معرفتهم بالعلم اليوناني. وكان الأساقفة يضيفون إلى وظائفهم الدينية وظائف الأطباء، وأساتذة المنطق، والمهندسين. ولهذا استعان العرب بمن يسمونه (الجاثليق) أي الكاثوليك عندما كانوا يعزمون على بناءِ جسرٍ ما. ومن هنا يمكننا أن ندرك، الدور العظيم الذي لعبه الأطباء الاسكندرانيون اليهود أو المسيحيون في نقل المبتكرات اليونانية الرئيسية إلى النخبة العربية.

كانت للعرب في الوقت نفسه اتصالات بعالم فكري آخر شديد الاختلاف: إنه العالم الهندي.

كانت التجارة مع الهند تغني جماهير شبه الجزيرة العربية منذ قرون طويلة وذلك بحمل منتجاتها في قوافل إلى سوريا أو مصر. ولما تكونت الامبراطورية زادت هذه التجارة اتساعاً واحتكر العرب بضائع الشرق: فازدادت كمية المبادلات، وأسست مكاتب على شواطىء المحيط الهندي حتى زنجبار ومدغسكر نفسها، حيث بنى العرب الأمويون مدناً عامرة شبيهة بمدن الجزيرة العربية، وتعاونوا تعاوناً شديداً مع التجار الهندوكيين الذين كانوا يتاجرون بالعبيد، والعاج، ولا سيما ذهب الترنسفال في عهد ما بعد جوبتا.

لهذا فمن الممكن أن يكون التجار العرب قد تعرفوا على النظام العشري الهندي أواخر القرن السابع أو أواخر القرن الثامن. أما تاريخ دخول هذا النظام إلى الجزيرة العربية فيحدده المؤرخون بسنة ٧٧٣ م حين حملت السلاسل الفلكية إلى الخليفة مرفقة بالرموز العددية بالإضافة إلى الصفر. وقد تبنى العرب هذا النظام بسهولة تامة لا سيما وأن القرآن لم يعطهم نظاماً عددياً آخر، وأن أساليب الحساب

اليونانية قد ظهرت لهم شديدة الصعوبة.

ويُظن أن البعض منهم قد اطلع حينئذٍ على مؤلفات آريا جوبتا وبراهما جوبتا في الجبر.

أما مؤلفات أرسطو فقد كانت في الوقت نفسه تنقل إلى العربية في مدرسة رأس عين اليونانية القديمة في سوريا والتي أصبحت من بعد مدرسة رأس العين العربية.

فالمهمة التي عجز عن اتمامها الساسانيون وهي المزج بين العلوم اليونانية والهندوكية، قد تم القيام بها من جديد وكان لنجاحها نتائج ضخمة بعيدة الأثر.



٥ - المعجزة العربية

(القرن التاسع بعد الميلاد)

استطاعت سوريا، بفضل الانقلاب الأموي، وفي نضالها التقليدي ضد فارس ومصر أن تسيطر على منافستيها الغنيتين فترة من الزمن، ولكن سيادتها كانت قصيرة الأمد. وكانت الساعة التي ثأرت فيها لنفسها وشيكة الحلول.

إن الشعوب الآرية التي تتكون منها فارس جزئياً قد أبدت مقاومة أشد من تلك التي أبدتها شعوب سوريا ومصر السامية أمام العرب. فالانتقال من السريانية إلى العربية عند هؤلاء شيء سهل، وكذلك كان الشأن بالنسبة لشعوب المغرب وإسبانيا الجنوبية، تلك التي أُعدت خلال قرون من الاحتلال الفينيقي لتعلم لغة سامية جديدة، والتي كانت تشمل من ناحية أخرى

مستعمرات كثيرة من التجار السوريين واليهود. أما في فارس فقد حدث العكس تماماً. فإذا كانت العربية قد أصبحت اللغة الرسمية للكتابة في المدن، وإذا كان الشعراء الفرس أنفسهم قد تبنوا لغة الغزاة، فإن الفهلوية لم تنقطع يوماً عن كونها لغة الكلام، في المنطقة الجبلية ولا سيما في شكل لهجة وطنية قومية[1]. أما من الناحية الدينية، فالبلاد لم تعتنق الإسلام إلا بصورة سطحية إلى حد ما، وكثيرون هم الفرس الذين بقوا كفاراً على تفاوت بينهم.

وهكذا بقي الشعب الفارسي، في مجموعه، يمثل أقلية مهمة غير منسجمة من الناحيتين اللغوية والدينية في وسط الامبراطورية الأموية الشاسعة. ولما قتل علي ورفض أنصاره الاعتراف بالانقلاب الأموي وتجمعوا في معارضة سياسية - دينية سُميت «تشيّعاً» التحق بهم عدد كبير من الفرس قصداً إلى تحطيم سلطان دمشق (السني) المركزي أكثر منه حماسة للنظرية الدينية.

---

(١) وكذلك فالفارسية في القرن التاسع لم تختلف غير قليل عن فهلوية القرن السابع.

ولما أغضبت حياة الأمويين المترفة جماهير المسلمين استطاعت أسرة عربية من أبناء العباس أن تحالف هذا الحزب الفارسي (الشيعي). واندلعت الثورة في أقليم خراسان نفسه حيث اختمرت ألفَ سنة قبل ذلك ثورة البارثيين ضد اليونان حيث كانت جبال هذا الإقليم ملاذاً دائماً للقومية الإيزانية.

وبفضل هذه المساعدة الكثيفة، هزمت جيوش الخليفة، وطردت من دمشق (٧٥٠ م).

اعتلى أبو العباس العرش، مفتتحاً عهد الملكية الماجدة للخلفاء العباسيين، هذا العهد الذي أشرف مدة طويلة على مصائر الإسلام بطريقة ملائمة سعيدة.

وابتدأ بعد هذه الثورة عصر جديد في تاريخ العالم المتمدن، عصر اتسم بانتصار العنصر الفارسي على العنصر السوري في الحقل السياسي. ورغم أن الدين الرسمي للدولة بقي سنياً، فإن الموظفين الفرس لا السوريين هم الذين ملأوا الوزارات وأشرفوا على جهاز الدولة فعل السوريين في عهد الحكم الأموي، لا سيما وأن الحزب الفارسي هو الذي رفع العباسيين إلى

العرش. أضف إلى ذلك أن بغداد عاصمة الامبراطورية الجديدة والتي قدر لها بعد ذلك أن تكون مدينة العالم المتمدين الأولى (٧٥٦م) قائمة بين المدينتين الساسانيتين القديمتين، المدائن وجندي سابور.

وقد أحدث هذا التغير السياسي العنيف للامبراطورية بعضاً من الأضرار فعجز الخلفاء الجدد عن انتزاع الاعتراف بهم من جميع رعاياهم. وأتاحت الظروف لأمير أموي ذي عهد طويل لامع فرصة الهرب إلى إسبانيا وتأسيس مملكة مستقلة استقلالاً عملياً عن بغداد في قرطبة. وإذا كان لهذا التفسخ آثار خطيرة في المغرب البربري حيث أُدخلت تقاليد الامبراطورية الدمشقية بسرعة فهو لم يحدث أثراً بارزاً عند الخلفاء العباسيين العقلاء الذين كانت رايتهم السوداء ترفرف فوق أراضٍ شاسعة.



وبعد انتقال العاصمة إلى بغداد، في وادي دجلة والفرات التي ملأتها ذكريات عظمة الحكام الساسانيين

وأمجاد كسرى، أصبح الأثر الفارسي يزداد **باطراد**: وقد تعود أبو العباس، منشىء المملكة ومؤسسها، والمنصور، باني بغداد، أن يحيطا نفسيهما بأصدقاء فرس. ثم وكل الخليفة التالي أمر تربية ابنه هارون الرشيد الملقب بالرشيد إلى موظف فارسي كبير.

ولما أصبح هارون خليفة (٧٨٦ م) كلف مربيه الفارسي يحيى البرمكي، بالوزارة، ويترك له شؤون إدارة الامبراطورية خلال عشرين سنة تقريباً، كما وكل إلى ولديه، فضل وجعفر، شؤون مراكز خطيرة مهمة.

وقد ساعدت حكومة الأسرة البرمكية للامبراطورية العربية على تحقيق التعاون العربي الفارسي في نطاق واسع، وأتاحت للعامل الفارسي أن يكون عظيم الأثر والخطورة. ولكن من المبالغة القول بأن هذا التأثير كان كافياً لمحو كل أثر يوناني. فلا ننس أن المسيحيين النسطوريين قد انتشروا بكثرة في البلاد الساسانية، وفي وادي دجلة بصورة خاصة، حيث أسسوا ديارات وحافظوا على حريتهم كاملة في ممارسة طقوسهم باشراف بطريق بغداد، بعد الغزو

الإسلامي، وقد حدث هذا الانتشار ابتداءً من القرن السادس الميلادي.

أما المسيحيون الذين كانوا يمرون بمدرسة جندي سابور الطبية ويملكون معارف طبية عميقة فإنهم كانوا يطلبون إلى البلاط من قبل الخلفاء ويستقرون فيه بصورة دائمة. وقد وكل هارون إلى أحدهم أمر تربية ابنه الثاني الذي عُرف من بعد بالمأمون العظيم. ولعله فعل هذا لإيجاد توازن مع التأثير الفارسي. وبذلك كان للنسطوريين إلى جانب الفرس أثر لا يمكننا التقليل من شأنه وهو في الوقت نفسه أثر يوناني مسيحي.

والملاحظ أن العباسيين رغم وصولهم إلى الحكم بفضل لادينية الأمويين، وابتعادهم عن ممارسة طقوس المذهب السني الرسمي، فإن خلفاءهم الأولين لم يترددوا في إحاطة أنفسهم بفرس متشيعين في أغلب الحالات، وفي بعضها الآخر مزدكيين، وسوريين مسيحيين، ويهود، وهندوكيين أو وثنيين، فمن التحيز الفاضح أن ننسب إليهم أقل تعصب ديني أو أن يخامرنا الشك في تحررهم.

فالعقيدة الإسلامية لم تكن تثير اهتمامهم. وإذا كان في بلاط هارون الرشيد لاهوتيون، فلأنه كان يجد لذة في متابعة مناقشاتهم المتناقضة حيث يعرض كل منهم نظريته ويدافع عنها. أما فضوله العلمي فلم يكن يتناول هذا النوع من الموضوعات! لقد كان يجد لذة خاصة في بيئة الشعراء والفنانين والفلاسفة والعلماء وهو الذكي، المثقف، الموسيقي الذواقة للعلم والأشياء الجميلة. إنه يجتذبهم إلى بغداد، ويحب أن يسألهم عن أسفارهم أو أعمالهم، وأن يستمع إلى محاضراتهم، ويشجعهم ويحميهم فيجمع فريقاً منهم في كل ليلة تقريباً في حلقة تلتمع بالفكر النير حيث يكون هو وصديقه جعفر البرمكي مشجعين وباعثين على الجد والعمل.

وهارون رغم نسبه العربي المحض، يقدر الثقافة اليونانية حق قدرها ويدرك قيمتها، كما أنه لا يجهل أن الموسيقى العربية التي تثيره وتهيج عواطفه هي نتاج مباشرللموسيقى اليونانية، كما يدرك أن الأطباء الذين يعنون بجسده يقتبسون علمهم كله من الكتب اليونانية، ولذلك فقد أمر كُتّابه بنقل مؤلفات أبقراط

وأرسطو وجالينوس إلى العربية

وكان من إقباله على العلم أن الثقافة اليونانية جميعها لم تكفه، فقد عقب عليها بالتعرف إلى الثقافة الهندية التي لوّح له بها بعض من العلماء الفرس. واستحضر أطباء من الهند ليتعرف إلى علمهم، ثم أمر بأن تشرح له نظرياتهم فقدر دقتهم حق قدرها وقارنها بدقة الأطباء اليونانيين مثيراً روح المنافسة عند هؤلاء وأولئك.

وبفضل شخصيته والخميرة الفكرية التي أشاعها حوله نشأت في بغداد أواخر القرن الثامن حركة أدبية، فنية، بالإضافة إلى حركة علمية هي في الحقيقة أندر وأثمن من تلك. وكان ذلك في عصر عوّدتنا «مدرسيتنا التاريخية» أن نعتبره «بربرياً» على تفاوت فى التقدير.

وإذا كان المؤرخ المتخصص في تاريخ فرنسا وأوروبا يستطيع عند الضرورة استعمال مثل هذا النعت بسبب ما كان يصدر عن ملك أمي ينشر العقيدة المسيحية بالحديد والنار في غابات جرمانيا

والذي كان يسميه - الفرنكيون - شارل الكبير، فإن مؤرخ الحضارة يعجز عن تطبيقه في عراق هارون الرشيد، هذا العراق الذي أتخمته الثروة، وكان ملتقى طرق الشرق التجارية الكبرى، والذي كانت عاصمته نقطة ارتكاز العالم المتمدن.

لقد كانت الصناعة والتجارة مزدهرتين. وكان يتجمع في خزائن الدولة كل سنة أكثر من سبعمئة طن من الذهب المسكوك، بالإضافة إلى الأعمال الكبيرة، من مرافىء وحصون، وقصور ومستشفيات ترتفع وتمتد وتتكون، مع بريد مضبوط بمحطاته كلها وغنى وأمن لم يكن لهما ضريب فيما نعلم[1].

ولئن سمي هذا العصر بالعربية «أيام الزفاف» فقد وجب علينا نحن الأوروبيين أن نسميه «قرن هارون الرشيد». وإنه ليؤسفني حقاً أننا لا نعلّم أطفالنا، في وقت مبكر، كيف يعرفون ويحبون هذا الحاكم العظيم. فيتعرفون إليه في الوقت الذي يتعرفون فيه على بريكلس، وسان لويس، وكولبر.

---

(١) ج. أوديزيو. حياة هارون الرشيد.

إن المشهد الذي يبرز فيه هارون الرشيد، طويلاً أبيض الوجه رائعاً في معطفه الأسود وهو يكرس احترامه للعلم بغسله يدي أحد كبار العلماء العرب على مشهد من الجمهور، هو تقليد ماجد عظيم. إنه لا يشوه كتبنا التاريخية، بل هو لا يقل في تأثيره التهذيبي عن المشهد الذي تبرز فيه القديسة بالاندين فريسة الأسود أو مشهد شارلوت كورداي التقليدي وهي تغتال مارا، هذين المشهدين اللذين يجهل أطفالنا ما إذا كان يجب عليهم أن يعجبوا بما يرونه فيهما أو يكرهونه، ما داموا لا يعرفون عنوان الصحيفة الصباحية التي يعطف عليها أستاذهم.



وبعد موت هارون (٨٠٩ م) خلفه ابنه البكر على العرش. ثم لم يلبث ان اصطدم مباشرة بعداء الحزب الفارسي الذي يؤثر رفع أخيه عبد الله المأمون، وهو ولد استولده هارون من محظية فارسية (٨١٣ م).

وقد أظهر المأمون منذ صباه مواهب ممتازة في أكثر العلوم لا سيا وقد أشرف على تربيته طبيب

مسيحي اسمه حنا الماسوي. ولما وصل إلى الحكم لم يحافظ فقط على حبه لها بل حاول أن يبعث هذا الذوق في رعيته. فأرسل إلى اليونان والهند بعثات أمرها بشراء كل المخطوطات التي يمكن الحصول عليها ونسخ ما لا يمكن الحصول عليه، فعل ذلك حين أدرك أهمية الحصول على النسخ الاصلية للمؤلفات اليونانية والسنسكريتية، تلك التي لم يكن يستعمل منها حتى ذلك الوقت غير ترجمات سريانية وفهلوية تتفاوت ضبطاً ودقة.

وبعد ذلك بقليل أي بعد انتصاره على الامبراطور اليوناني ميشال الثالث طلب في المعاهدة التي فرضها عليه أن يتنازل له عن بعض المؤلفات اليونانية النادرة الثمينة.

وقد أفاد الفلك بصورة خاصة- وهو علمه المفضل- من هذه الجهود. فنقل إلى العربية (٨٢٧) كتاب المجسطي لبطليموس، وتعاون على نقله الخازن ابن يوسف وسرجيوس المسيحي. وقد بقي هذا الكتاب، الذي سمح للعرب بدراسة نظريات اليونان الفلكية، بضبط ودقة، قاعدة لكل الأعمال الفلكية

العربية والغربية حتى عهد كوبرنيك بل عهد غاليليو والعرب هم الذين اطلقوا عليه اسم « المجسطي » على سبيل الاختصار فجعله الغربيون بعد ذلك المَاجسط «Alamageste» .

وقد لوحظ بسرعة أن أكثر المسافات المهمة المذكورة في هذا المؤلف، كطول الدائرة الأرضية بصورة خاصة، قد حسبت على مراحل، وأحدث تحويلها إلى الوحدات العربية غموضاً وخطأً في تحديد هذه المراحل نفسها. ولذلك أمر المأمون بقياس هذه المسافات من جديد ولا سيما طول الدرجة الأرضية. وقد انتهت هذه العملية بنجاح عظيم فقدر بها طول دورة الأرض بـ ٢٠٤٠٠ ميل.

وليس لنا أن نناقش هنا دقة هذه النتيجة. فما يهمنا منها هو أن نعرف بأن الناس في بغداد قد شعروا بالحاجة الماسة إلى تحقيق هذا القياس بالإضافة إلى أقيسة أخرى شبيهة به كالانحناء الخسوفي أو نعرف أنهم كانوا جديرين بالقيام بمثل هذا العمل لأنه يظهرنا على مدى نمو الثقافة في البلاط العباسي والفرق الكيفي بين الجو الفكري في العاصمة العربية وجو

بيزنطة المسيحية.

وللاستفادة بسرعة من المؤلفات التي حملها إليه مبعوثوه، قرر المأمون استدعاء عدد كبير من النقلة والمترجمين، فدفع إليهم مرتباتهم وشجعهم بجوائز سنية. فأسس سنة ٨٣٠م بيت الحكمة حيث كانوا يعيشون على حسابه. وكان الكثيرون منهم من المسيحيين النساطرة الذين تخرجوا من مدرسة جندي سابور الطبية، والذين كانوا يعرفون جيداً اليونانية والعربية والسريانية وهي اللغات الضرورية لمثل هذا العمل. كما قدمت مدرسة حران إلى هذه المدرسة الجديدة مجموعة مهمة من العلماء، هذه المدرسة التي بقيت في أعماقها وثنية وحافظت على تقاليد اليونان القدماء العلمية دون أن تشوبها شائبة صوفية. فبفضلٍ من عنايتهم نقلت إلى العربية مؤلفات اقليدس وارخميدس وابولينوس وبطليموس.

وقد اختار المأمون محمد بن موسى لإدارة مدرسته. وهو رياضي عربي مولود في ضاحية خراسان فلقب من أجل ذلك بالخوارزمي الذي نطلق عليه نحن، الاوروبيين، اسم الخارزمي. ولقد رافق هذا الرجل

إحدى البعثات التي أرسلها المأمون إلى أفغانستان ثم ذهب إلى الهند أيضاً في ظننا الغالب. وكتب بعد رجوعه في علم الجبر الذي استوحاه من جبر براهما جوبتا.

وقد استعرض فيه على الطريقة اليونانية بعضاً من البراهين. ثم سجل جداول فلكية اشتملت على نتائج مقتبسة في الوقت نفسه عن بطليموس وبراهما جوبتا.

لقد أعطى في جبره، خلا قواعد الحساب الأولى، طريقة عامة للحصول على جذور معادلات الدرجة الثانية تحت عنوان: «الجبر والمخاللة» فمنحنا أول هذا العنوان لفظ «الجبر» واقتبسنا من لقبه الكارزمي (Alkarismi) لفظ «Algorithme».

وقد لعب هذا المؤلف دوراً رئيسياً في تاريخ حضارتنا لا سيما وأنه أصبح حجر الزاوية للبناء الرياضي الذي رفعه العلماء العرب اللاحقون، وعلم أوائل زملائهم الغربيين كيف يتذوقون جمال الحساب

الجبري والحساب العشري وجعلهم يثبتون الأرقام الهندية مكان الأرقام اللاتينية.

وبعد موت الخوارزمي تابع عمله عالم نشأ في حران جاء يعمل في بيت الحكمة كمنجم للخليفة يدعى ثابت ابن قرة. وهو ألمع من أخرج العرب من الرياضيين.

فأصلح الأخطاء المندسة في بعض الترجمات لقلة خبرة بعض من زملائه في علوم الرياضيات وأصبحت ترجمته للمجسطي النص التقليدي المأخوذ به بعد ذلك. لقد حسّن الجبر وعالج بصورة خاصة مسألة حل معادلات الدرجة الثالثة بواسطة الهندسة.



والحقيقة أن الازدهار لم يتناول فقط علمي الفلك والرياضيات في عهد المأمون، بل شاع كذلك في فروع العلم والفن كلها، فتنافس الفيزيائيون والكيميائيون والأطباء في اكتشاف أسرار قوانين الطبيعة. وبينما كان البعض مكباً على دراسة المرائي المقعرة كان آخرون يسجلون بصبر خصائص المعادن والاحماض والأملاح الفيزيائية والكيميائية. أما الأطباء فلم

يكتفوا بشرح ابقراط أو جاليئوس بل انصرفوا إلى تسجيل ملاحظاتهم في مستشفيات بغداد والاسكندرية ودمشق وتبادلوا نتائج أعمالهم في نوع من مجلة عنوانها: صحيفة الحوادث.

إن مثل هذه الحماسة للأبحاث العلمية لم تعرف منذ زمن طويل في تاريخ العالم، منذ عدد كبير من القرون على الأقل. ولا يسعنا إلا أن نتساءل عن السبب في ذلك.

وتعليل هذه الروح الإنسانية، يرجع إلى حد بعيد إلى القيمة الشخصية لحكام استثنائيين من مثل هارون الرشيد والمأمون اللذين فعلا كل شيء في سبيل بعثها بل تنظيمها. أما إذا أردنا أن ندرك السبب العميق لهذه الظاهرة فيجب أن نفتش عنه بعيداً. لنتخيل أن هارون والمأمون قد حكما في عصر آخر من التاريخ وفي بلد مختلف، كروما الامبراطورية مثلاً، مكان اغسطوس وطيباريوس. فندرك من ثم أنهما يعجزان حتماً عن تحقيق نتائج مشابهة لأن الشعب الروماني محدود الأفق متعطش خاصة إلى ألعاب السيرك وأن أياً منهما لا يمكنه البقاء طويلاً، وتأييد أمثال (بلين)

القليلين لا يكفي لكي يحفظ لهما العرش.

إن الشعوب عادة لا تملك غير الحكام الذين تستحق، ولئن تحمل الرومانيون مجموعة القساة الدمويين النادرة كطيباريوس وكاليجولا ونيرون وغيرهم، فلم يكن ذلك بفعل حظ عاثر استثنائي ولا بتأثير رذيلة أساسية عضوية عند هؤلاء الملوك، ولكن هذه المجموعة تنسجم تمام الانسجام مع حساب الاحتمالات الدقيق. وخلاصة ما في الأمر أن هؤلاء ممثلون نموذجيون للنخبة الرومانية المعاصرة.

وإذا تميز الشعبان العربي والفارسي في بغداد بحكام ممتازين خلال القرن التاسع، فمن الحق أن نعزو ذلك إلى نخبة يكوّن غالبها رجال أذكياء مثقفون من مثل هارون والمأمون والخوارزمي والعلماء الآخرين الذين تحدثنا عنهم.

فليس مدهشاً أن يصل إلى العرش أمثال هذين الخليفتين، بل المدهش حقاً هو الظهور المفاجىء في مثل هذه البرهة من التاريخ وفي هذا المكان لعدد كبير من الرجال الموهوبين الذين يدفعهم فضول متعطش

إلى السفر والتثقف وروح النقد وحاجة ماسة إلى الفهم والإدراك.

ترجع بنا هذه الصفات إلى عصر آخر بعيد، عصر ظهر خلاله في ايونية أمثال طاليس وفيثاغورس، عصر كان فيه اليونانيون (المسافرون والفضوليون) ينظرون إلى العالم بعين جديدة، عصر اكتشفت فيه خصوبة الهندسة وروعة الفيزياء، عصر حقق فيه المزج بين المعارف المصرية والكلدانية، أقصد به عصر «المعجزة اليونانية».

لذلك فإن من الضروري أن نسمي العصر الذي شاهد هارون الرشيد، والمأمون والخوارزمي، العصر الذي حقق فيه العرب المزج بين المعارف اليونانية والهندوكية، العصر الذي اكتشفوا فيه خصوبة الجبر وروعة الحساب وفائدة الكيمياء عصر «المعجزة العربية».

٦ - نجاح المعارف العربية وانتشارها

(القرن العاشر بعد الميلاد)

بينما كان الخلفاء العباسيون يرفعون الحضارة العربية إلى أعلى درجات المجد كانوا يجدون في إدارة امبراطوريتهم صعوبات خطيرة.

لقد كان من الضروري وجود أمثال الأباطرة الاخيمينيين العسكريين أو الأباطرة الرومانيين لاخضاع مناطق متباعدة، بعد العراق عن صقلية ومراكش عن ايران، تحت نير واحد خلال قرون عديدة. ورغم قيمة العباسيين الحربية فقد كانوا يظهرون كرههم للحروب الداخلية ويفضلون استعمال وسائل أقل قسوة وجدوى من ارسال بعثات عسكرية زاجرة.

لقد رأينا هارون يكتفي بإرسال من يغتال

ادريس، من أسرة النبي، الذي أَسس في مراكش مملكه مستقلة بدلاً من أن يعلن الحرب عليه؛ ولكن قلة جدوى هذا الأسلوب التوفيري ظهرت بعد قليل، فهو لم يمنع ابن ادريس من الاستقرار في فاس وتحدي سلطة الخليفة.

ولما نشبت بعد ذلك ثورة في تونس اتخذ هارون سياسة جديدة ولم يتردد في منح التونسيين حق إدارة تونس. وهكذا اتجهت هذه المنطقة نحو استقلالية زادت باطراد تحت حكم الاغالبة، الامراء البرابرة. وكان من نتائج ذلك أنه بدلاً من أن يحدث انفصال عنيف عن الامبراطورية فقد حدث هذا الانفصال على التدريج.

بدأ القسم الشرقي من الامبراطورية ينفصل عنها خلال ولاية المأمون اثر اعلان استقلال خراسان (٨٢٠ م.) وبعد ذلك بقليل انتزع السامانيون السلطة وهم امراء ايرانيون تفاوت انتسابهم إلى الساسانيين القدماء قرباً وبعداً (٨٧٥ م). ثم ألحقوا خراسان بدولتهم وجعلوا من بخارى عاصمة لهم وحكموا ايران الشرقية كلها. ثم حولوها إلى مملكة لعبت خلال القرن

العاشر الميلادي دور الحصن الأمامي للعالم الأبيض مقابل (الخطر الأصفر) الناجم.

وفي الوقت نفسه برزت إمارات في كل مكان، في حلب من سوريا والموصل من العراق. أما مصر فقد كادت تستقل استقلالاً تاماً.

وهكذا فقد الخلفاء العباسيون سلطتهم الزمنية في السنوات الأولى من القرن العاشر خلا البلد العراقي. وتحولت إلى سلطة دينية نظرية. وأخيراً انتزع أحد الأمراء البويهيين منهم البقية الباقية من سلطانهم سنة ٩١٥ م. وقد كان هذا الأمير يسيطر على القسم الغربي من إيران فأتى يتمركز في بغداد ويحتكر لنفسه لقب «أمير الأمراء» مع سلطاته الكاملة، هذا اللقب الذي سيستبدل به خلفاؤه من بعده اللقب الفارسي القديم

أما فيما يتعلق بالسلطان الروحي فإنه لم يصمد طويلاً بعد الانهيار السياسي. من ذلك أن الأمراء الأمويين في قرطبة وجدوا أنفسهم جديرين بحمل لقب الخليفة. ثم اندلعت بين القبائل ثورة هيأتها أسرة

عربية تزعم أنها تنتسب إلى فاطمة ابنة النبي ﷺ وسميت من أجل ذلك بالفاطمية. وطردت الأمراء الأغالبة من القيروان وأسست فيها خلافة شيعية كانت في الواقع إهانة كبرى للعباسيين. وقد قضى الفاطميون على العباسيين بعد ذلك حين طردوا حاكمهم من مصر ولم يبق من هؤلاء في الحقيقة غير خلفاء محليين خاضعين لوصاية إيرانية حقيقية[١].



ومن الممكن الظن بأن هذه التجزئة التي جعلت الامبراطورية العربية دولاً متمايزة متنافسة إن لم تكن متعادية، ستسيء إلى خصوبة النهضة التي أطلقنا عليها اسم «المعجزة العربية». إنه من الصعب أن يصف المؤرخ تجزؤ امبراطورية عظيمة دون أن يستعمل مرغماً لغة تثير في ذهن القارىء صورة جسد متعفن ممزق الأعضاء. وإذا كانت هذه الصورة صادقة في بعض الأوقات فهي في بعضها الآخر خادعة كاذبة.

---

(١) ر. جروسا. تاريخ آسيا

ومن الخير أن نستعمل التعابير البيولوجية حين نتحدث عن تجزؤ الامبراطورية العباسية. إن اسبانيا ومصر وفارس لم تنفصل عن هذه الامبراطورية كما تنفصل الأعضاء عن الجسد بل هي ثمرات ناضجة سقطت من شجرة صحيحة فوزعت بذورها حولها.

لقد أفاد هذا التجزؤ «المعجزة العربية». وكما أن موت الاسكندر سبب نشوء الممالك التي أشاعت الحضارة الهلينية في الاسكندرية وبرغام وانطاكية وسلوقية فإن نشوء المقاطعات التي كانت تابعة لمركز الخلافة أحدث عواصم تكونت فيها بلاطات رائعة غنية تمركزت أنظار ملوكها في بغداد جاعلين منها نموذجاً يقلدونه ويحذون حذوه. كان لهذا التجزؤ خير أثر في تطور الحضارة ونجاحها. كما أمّن انتشار المعارف اليونانية والأعمال العربية بسرعة غير منتظرة. وبفضل هذا الحدث أصبحت تلك المعارف والأعمال معروفة مفهومة منذ القرن العاشر الميلادي بين القوقاز والبيرينة ومن بخارى حتى قرطبة.

* * *

ومن الحق أن نعترف بأن ضياع الامبراطورية لم يسيء إلى بغداد إلا قليلاً. فإذا خسرت هذه المدينة لقبها كعاصمة سياسية كبيرة فقد اكتسبت بفضل «المعجزة العربية» لقب العاصمة الفكرية. ولئن لم تعد «روما» المسلمين فقد أصبحت «أثينا» لهم. وهذا في الحقيقة أروع وأدعى إلى الغبطة.

وإذا كان سكانها الثمانمئة ألف ومساجدها التي لا تعد تثير اعجاب المسافرين فإن مدارسها الكثيرة المشهورة في العالم كله كانت تجتذب الطلاب من البلدان المجاورة. كانت نخبة من العلماء تعمل فيها، بينما كان الرياضيون والفلكيون يتابعون الطريق التي خطها الخوارزمي وتلامذته من قبل. أما الفيزيائيون فكانوا يعالجون معضلات جديدة، والجغرافيون يدرسون خارطة العالم، والكيميائيون يتابعون عملهم الصبور الذي ينيره بين الفينة والفينة اكتشاف خصب جديد.

كان البتاني الرياضي المشهور حياً آنذاك. وقد سجل نجاحاً عظيماً في علم المثلثات حين استعمل الجيب بدل الأوتار التي كان يستعملها اليونانيون منذ عهد

بطليموس. ثم استقر أبو الوفاء الفلكي الكبير في بغداد. وصحح الأرصاد المختصرة التي عملت أيام المأمون بعد أن أصبح مديراً للرصد، كما حرر القوائم الفلكية العامة التي سجلت نجاحاً عالمياً.

واندفع بعض العلماء اثر الكندي في طريق جد مختلفة وجربوا أن يحلوا هذه المسائل الخالدة التي طالما ناقشها اليونانيون من قبل: وسموا فلاسفة. وقد كان لهذه الكلمة في أفواه المؤمنين من المسلمين معنى شيطاني شرير.

ثم أسس البعض منهم جمعية «إخوان الصفاء» التي نشرت دائرة معارف فلسفية تميزت على ما يظهر بأفكار معتدلة حكيمة. وظهر علماء آخرون دعوا بـ «المناقشين» كانوا يتظاهرون بدراسة الأديان المعروفة ونقدها بحرية ثم إظهار ما فيها من حسنات ونقائص. ويشترك في هذه الاجتماعات مسلمون من كل المذاهب، سنة وشيعة، ومسيحيون ويهود، ثم ملحدون ومفكرون أحرار وماديون. وطريقتهم التي فرضوها على أنفسهم هي الاعتماد على «العقل» فلا يرجعون إلى سلطان النبي أو أي كتاب مقدس.

ومن المؤسف أن هذه الاجتماعات كانت تثير المسلمين المحافظين الذين يستمعون مصادفةً إلى ما يدور فيها من أحاديث فيجدون من واجبهم إثارة الرأي العام ضد الفلاسفة، مما كان يجبر الخلفاء على إحراق مؤلفات أحد العلماء أو يضطرهم إلى اتخاذ اجراءات وعقوبات أكثر خطورة وشدة.



فبغداد لم تعد تنفرد باعتبارها المدينة الفكرية الوحيدة في العالم المتمدين بعد انقسام الامبراطورية. ولم يكن الفلاسفة والعلماء يجدون أية صعوبة في الالتجاء إلى بلاطات أخرى ذات ثقافة لا تقل رقياً عن ثقافة بغداد، ان لحقهم اضطهاد أو عنت.

وهكذا أصبح امراء حلب يفاخرون بواحد من أكثر المفكرين العرب عمقاً هو الفيلسوف الارسطي الفارابي. كما جعل بلاط الأمراء السامانيين في بخارى مركزاً للدراسات الفلسفية اجتذب، في وقت ما، أشهر علماء الإسلام. واستطاعت هذه المدينة بعد أن تخلصت من سلطان بغداد أن تسبغ على ثقافتها روحاً إيرانية

لا سيما وهي في وسط إيران، وبعبارة أخرى، أن تحدث نهضة في الثقافة الإيرانية قدر لها من بعد أن تمحو الثقافة العربية من هاتيك الاصقاع. ولئن كتب بعض من الشعراء، كالفردوسي، هوميروس الإيراني، شعرهم باللغة الإيرانية ابتداء من القرن العاشر فإن أكثر الآثار العلمية بقيت تصدر باللغة العربية.

كتب الرازي، العالم الطبيب الإيراني، مؤلفه الكبير بالعربية. وهو دائرة معارف طبية اشتملت على أوصاف دقيقة للأمراض من بينها مرض الجدري. كما أن ابن سينا قد كتب أكثر ما كتب باللغة العربية وهو الرجل الذي رفع ابداً من شأن وطنه، بلاد ما وراء النهر، واستحق لقب «أمير العلوم». ولد آخر القرن العاشر في منطقة بخارى. وأظهر منذ صباه الأول ذكاء فريداً، فوضع الأمراء السامانيون مكتبتهم الممتازة تحت تصرفه وحموه وشجعوه. وبذلك أوغل في دراسته، التي تابعها بعد ذلك في بلاط الملوك البويهيين في بغداد.

كان فيلسوفاً كبيراً وأعظم طبيب عرفته الإنسانية خلال قرون؛ أخرج كتابه الرئيسي (القانون) الذي

أصبح مرجعاً للغربيين حتى العصر الحديث. هذا إلى جانب كونه ملاحظاً ممتازاً وطبيعياً وعالماً بطبقات الأرض، (لا سيما وهو الذي فسر تكون الجبل ببروز القشرة الأرضية).

* * *

كانت المعارف العربية تنتشر في الوقت نفسه في الطرف الآخر من العالم المتمدين عبر اسبانيا بفضل بلاط الأمراء الأمويين. وبالرغم من طابع الحذر الذي اتسمت به علاقات هؤلاء بالخلفاء العباسيين فقد استقبلوا ترجمات مؤلفات ارسطو منهم بشغف وحماسة وكذلك مؤلفات اقليدس وارخميدس وبطليموس إلى جانب الآثار الرائعة للرياضيين والفلكيين العرب في بغداد.

وان ما عرفناه من أنهم جمعوا أوائل القرن العاشر أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ مجلد، والكتب حينئذ نادرة وثمينة، يساعدنا على تصور المجهود الجبار والارادة العنيدة اللذين ساعدا على جمعها.

وبفضل هذه المكتبة أصبحت قرطبة، كبخارى،

مركزاً فكرياً مشهوراً اجتمع فيه الطلاب العرب والاوروبيون وزارها عدد من المسافرين الغربيين الذين اعتادوا رؤية القرى الهزيلة في بلاد الغال وجرمانيا وكانوا يجهلون روعة بغداد، بل وعظمة بيزنطة. هؤلاء جميعاً أصابهم ذهول حين رأوا الثلاثمئة مسجد في قرطبة. فسموها «لؤلؤة العالم».

والواقع أن قرطبة سنة ٩٢٩ م، والتي لم يقلّ عدد سكانها عن نصف مليون، قد اعتبرت نفسها منافسة لبغداد، وأتاحت لسطانها القوي الأمير عبد الرحمن الثالث الجرأة على المناداة بنفسه خليفة للمسلمين.

كانت مصر آخر مناطق الامبراطورية العباسية تمتعاً بالاستقلال التام. ولكنها لم تتأخر، وهي ذات التربة الخصبة، عن إمتاع القاهرة عاصمتها الشابة بكل ثرواتها فسمح لها ذلك بمنافسة بغداد وقرطبة.

لقد أسس الخلفاء الفاطميون في القاهرة بعد سنوات قليلة من استقرارهم فيها جامعة هي جامعة الأزهر (٩٧٨ م) وما تزال هذه الجامعة قائمة حتى اليوم. ومن الواجب اعتبارها سيدة الجامعات المعاصرة لولا خطأ ارتكبه بعضهم. كما بنوا في الوقت

نفسه مرقباً حقق فيه ابن يونس الفلكي نجاحات هامة في علم المثلثات بالإضافة إلى مكتشفات فلكية قيمة. وقد اجتذبوا إلى مؤسساتهم العلماء المشهورين فجاء ابن الهيثم، العالم الطبيعي، وهو من مواليد البصرة، إلى القاهرة ليدرس فيها، زيادات نهر النيل، الذي فكر بتنظيم سيره. ولما استقر به المقام أدرك بثاقب نظره استحالة المهمة وبقي في مصر وتابع دراساته في الهندسة وكتب مؤلفه في علم البصريات الذي اشتمل لأول مرة على وصف علمي للانعكاس الضوئي.

كانت «المعجزة العربية» تنتشر من الشرق إلى الغرب، من حلب إلى بخارى، من القاهرة إلى قرطبة، بفضل انقسام الامبراطورية. فأسست في كل مكان مدارس وجامعات ومكتبات شاعت فيها حيوية مثيرة. وفي كل مكان ظهرت الرغبة في التثقف واكتشاف الحقيقة كما كان الأمر في بغداد قبل ذلك بقرن واحد. وفي كل مكان انتشرت وصفات الأطباء والكيميائيين، وخصائص الابرة الممغنطة واسرار صانعي الورق وأساليب صهر الحديد، ثم اجتازت المتوسط من أقصاه إلى أقصاه بواسطة صناع دمشق

وحملت معها إلى سكان طيطلة ثروة كبيرة. وتجاوز اشعاع هذه الحضارة العربية حدود المناطق التي كان يشرف عليها العرب. ومنذ توحدت شواطىء المتوسط الشرقية والجنوبية والغربية تحت سلطان واحد بالإضافة إلى أكثر الجزر التي تغسلها أمواج هذا البحر، صقلية، الباليار الخ.. ظهرت يقظة تجارية حقيقية سمحت للدينار الذهبي والثقافة العربية بأن يسيراً معاً طوال الطرق التجارية الجديدة بعيداً عن العالم الإسلامي. فأصبح المتوسط الذي كان فيما مضى لاتينياً، بحراً عربياً حقيقياً، وأصبحت العربية في كل شواطئه لغة دولية للتجارة والعلم. أما في الشعر فقد كانت لغة الطراز الأخير، كما أعلن علماء الجمال الاندلسيون استغناءهم طوعاً عن الأدب اللاتيني الفقير من أجل « بضعة أبيات من الشعر العربي »، كما رئي بعض من الاساقفة الكاثوليك يتركون اللاتينية وهي لغة الدين للمسيحية الغربية، ليكتبوا باللغة العربية.

وسكن في ساليرنو من ايطاليا ومونبلييه من فرنسا أطباء عرب ويهود أتوا من اسبانيا وأسسوا في هاتين المدينتين مدارس طبية قدّر لها أن تلعب فيما بعد دوراً

مهماً في تاريخ الحضارة بعد أن انتقلت نقطة ارتكاز العالم الفكري من الشرق إلى الغرب.

أما في بيزنطة، فقد قلد الأباطرة اليونانيون الخلفاء في بغداد. وحدث ما لم يكن بالحسبان: فإن القيمة التي جعلها الخلفاء العباسيون للآثار اليونانية قد أظهرت نفاسة هذه الآثار لليونان أنفسهم. فأحدث ذلك في بيزنطة وفي وقت ما نوعاً من يقظة هلينية، تأسست خلالها في بيزنطة (مدرسة الـ Majaure) وهي مشابهة لبيت الحكمة الذي أسسه المأمون قبل ذلك بثلاثين سنة. وقد استطاعت هذه المدرسة أن تشع على ما بقي من العالم اليوناني واختير فيها الأساتذة، كما هو الشأن في بغداد، من بين العلماء بغض النظر عن معتقداتهم الدينية. ومعنى ذلك أن التعليم قد أصبح فيها «علمانياً، مجدفاً، ووثنياً على التقريب»[1].

وقد اهتم امبراطوران من الملكية المقدونية بالفلك والرياضيات هما: ليون السادس وقسطنطين السابع. واختار هذا الأخير كتاب ديوسكوريد في علم الصيدلة

---

(1) أ. بايلي. بيزنطة

هدية دبلوماسية أرسلها إلى خليفة قرطبة الجديد عبد الرحمن الثالث.

ورافقت هذه اليقظة الهلينية نهضة سياسية: فقد بنت بيزنطة اسطولاً بحرياً بعد أن تركت للعرب خلال قرن من الزمن نفوذاً بارزاً في البحر المتوسط، واستفادت من انقسام الامبراطورية العباسية لتسترجع من المسلمين آسيا الصغرى وقسماً من سوريا والعراق، وهذا ما يسمى (بملحمة بيزنطة في القرن العاشر) فكان عصر ازدهار توج الملكية المقدونية وجعل لليونانيين عهداً ذهبياً تحت عنوان اتحاد الوثنية والمسيحية.

والمؤسف أن هذه المحاولة قد فشلت لأن الكنيسة المسيحية لم تقر روح هذه النهضة واعتبرتها بحق خطرة بالنسبة لها.

فلم تلبث حتى أعلنت غضبها ولقبت بـ « السحرة » علماء أمثال فوتيوس وحنا البطريرك وليون الفيلسوف؛ وتوصلت شيئاً فشيئاً إلى شلّ هذه المجهودات للوصول إلى الحقيقة. وهكذا لم يكرس البيزنطيون مراحل السلم النادرة التي سمحت لهم الحوادث الخطيرة بعد ذلك بالتمتع بها إلا لدراسات لاهوتية أو مناقشات « بيزنطية ».

٧ - انهيار العرب

(القرون الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر)

ازدهر العهد العربي ابتداء من الهجرة خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين. وبعد أن نضجت الثقافة العربية في القرنين اللذين يليانهما بفضل اتصالها بالثقافتين اليونانية والهندية، استطاعت غزوات الغرب المسيحي من ناحية والشرق التركي الآسيوي من ناحية أخرى أن تسبب انهيار قوة العرب السياسية على الأقل ان لم تحدث انهيار الحضارة بالذات.

حاول الأتراك قبل ذلك بقرن من السنين التغلغل في إيران حيث اصطدموا بالإيرانيين الذين انتقل إليهم السلطان في العالم العباسي. وقد استطاع عدد منهم الدخول إلى حاضرة الخلافة بهدوء وأصبحوا سادة لها إثر اعتناقهم للإسلام دون تردد.

واستطاع أحد هؤلاء الأتراك (محمود) بعد أن أصبح حاكماً على مدينة غزنة أن يزعزع سلطان آخر الملوك السامانيين ويهزم بعد ذلك جيوش « ملك الملوك » البويهي. فاستخلص لنفسه من الخليفة لقب « السلطان » وأسس لنفسه امبراطورية قصيرة الأجل ولكنها قوية امتدت من بغداد إلى البنجاب.

وبعد موت محمود انهار خلفاؤه أمام السلاجقة وهي أسرة تركية أخرى قوية دخل زعيمها إلى بغداد سنة ١٠٥٥ م واتخذ لنفسه لقب السلطان.

وقد انتزعت جيوش خلفه مدينة القدس من خليفة القاهرة. وفي سنة ١٠٨٧ م احتفل السلطان السلجوقي الثالث بانتصاره وذلك بأن غمس سيفه في مياه البحر المتوسط.

ورغم محاولة الغزنويين والسلاجقة الدفاع عن الحضارة العربية الفارسية فقد عجزوا عن إيجاد الجو الملائم للنجاح والبحث العلمي بسبب إسلاميتهم الخشنة وقسوتهم وحدوث عهدهم بالعقيدة.

وما لا شك فيه أن محموداً قد جرّب أن يجعل من غزنة عاصمة فكرية منافسة لبخارى ووصل إلى شيء من ذلك حين أوجد فيها مؤسسة علمية شبيهة بجامعة. وقد ازدهر عهده بحضور الشاعر الفردوسي في بلاطه والبيروني العالم الكبير. واستطاع هذا الأخير أن ينصرف إلى أعمال متنوعة بدأنا اليوم ندرك أهميتها. كما استطاع أن يسافر مع محمود إلى قسم كبير من الهند وصفه لنا وصفاً ممتازاً. ثم انصرف إلى دراسات طبيعية فخطرت له فكرة المقارنة المدهشة، بالنسبة للعصر، بين سرعة النور وسرعة الصوت. وشرح بتفهم شديد منافع ما يسمى بالفرنسية (La numération de position) وأدرك أهمية التجربة في دراسة العلوم.

ولكننا حين نعلم أن البيروني كاد يكون سجيناً عند محمود ومعرضاً للاعدام، وحين نذكر أن الفردوسي قد عومل المعاملة نفسها يحق لنا أن نجزم بأن السلطان الغزنوي قد أساء الاستفادة من مجد الشاعر والعالم، وان هذين يعتبران آخر ثمرتين ناضجتين في الشجرة العباسية.

فالحكم التركي لم يكفل أقل قدر ضروري من

النظام والحرية لتنمية رجال العبقرية. فقد كان محمود يضطهد الشيعة، أما السلاجقة فلم يكادوا يستقرون في سوريا حتى بدأوا باضطهاد الحجاج المسيحيين الغربيين الذين كانوا يأتون قبر المسيح طواعية منهم. فمنعوهم من الاقتراب من الأماكن المقدسة بأحداث ازعاجات كثيرة حتى التعذيب في بعض الأوقات. وهكذا أحدث تعصب الأتراك وقصورهم عن رؤية قوى الكاثوليكية النامية في ذلك العصر، ردة دامية بعد ذلك بسنوات قليلة إثر صدمة الصليبيين لهم.

وبينما كان الأتراك يتحولون سادة في الشرق، كانت الملكية الأموية في اسبانيا تلفظ أنفاسها الأخيرة (١٠٣١ م). وانقسمت خلافة قرطبة إلى عدد كبير من الدول الصغيرة يحكمها امراء عرب وبرابرة وعواصمها اشبيلية وغرناطة وملقة. وبفضل هذا الضعف استطاع مسيحيو الشمال أن يسترجعوا شيئاً فشيئاً أقاليم كانوا قد خسروها أثناء الغزو الاول: فاسترجعوا أراغون بادىء الأمر ثم طليطلة المدينة العربية الكبيرة سنة (١٠٨٥ م) وبعد ذلك بأربع سنوات تكونت صليبية حقيقية من الفرسان

الفرنسيين والاسبانيين أطلقها في طرق اسبانيا البابا الفرنسي اوربانوس الثاني.

وبالرغم من الاضطراب الذي حملته الغزوات المسيحية في البلد الإسلامي ورغم الانشقاقات التي فصلت بين مختلف آراء العرب فقد بقيت المدن الاسبانية لذاك العهد محافظة على الثقافة الأنيقة للبلاطات الرائعة. فقد كتب العالم أبو القاسم في طليطلة «تاريخاً في العلوم» أظهر به عقلاً ناقداً حصيفاً وكان Arzachel الفلكي يعمل فيها حتى سنة (١٠٨٠ م) أي خمس سنوات قبل سقوطها بأيدي المسيحيين على التقريب. وفي اشبيلية كان للأمراء الأمويين بلاط عظيم يختلف إليه أطباء مشهورون.

وظلّ المسيحيون يتقدمون باطراد وينتزعون من أرض اسبانيا العربية قطعة قطعة. حتى بلغ الخطر مبلغاً دفع الأمراء الأمويين إلى الاستنجاد بمسلمي افريقيا وطلب المساعدة من قبيلة حربية من الصحراء، قبيلة المرابطين، التي استطاعت انقاذ اسبانيا العربية من خطر مباشر وذلك بإيقافها الغزو المسيحي.

ثم هُزم المرابطون أنفسهم من قبل الموحدين، برابرة الأطلس، الذين استطاعوا من جديد وبفضل عبقرية أحدهم (عبد المؤمن) تنظيم امبراطورية قوية تمتد من شواطىء الاطلنطي حتى طرابلس الغرب (١١٤٨ م).

وهكذا عرف جنوب اسبانيا ومراكش عهداً عظيماً خلال حكمهم الذي كان على ما يقال من أعظم العهود ايغالاً في الحرية، فازدانت كل من مراكش والرباط بآثار رائعة وحضور عدد كبير من العلماء والفلاسفة والفنانين. وقد تابع هؤلاء حمل تراث الاولين مع تخلصهم من سلطان الموحدين. وجرؤ البتروجي الفلكي على أن ينقد بصراحة تامة نظام بطليموس المعقد، مقترحاً نظاماً آخر أبسط منه. كما أن ابن زهر الطبيب «حكيم اشبيلية» قد جرؤ هو أيضاً على نقد نظريات جالينوس وابن سينا وأعلن أنه لن يعتمد إلا على نتائج تجربته الخاصة. ورفع ابن رشد في حقل الفلسفة مذهباً جديداً اتسم بالشك والالحاد فترك وراءه دوياً عظيماً في العالم الغربي.

وبعد أن قاوم الموحدون الجيوش المسيحية خلال

قرن من الزمن اضطروا مع الأسف البالغ إلى الاستسلام: فانهزموا سنة ١٢١٢ م أمام الجيوش المتحالفة لملوك قشتالة واراغون ونافار، وفي سنة ١٢٣٥ م استولى فرديناند ملك اراغون على قرطبة، وفي سنة ١٢٤٨ م دخل المسيحيون إلى اشبيلية.

أما حالة المسلمين، الذين ارغموا على الدفاع عن أنفسهم في أقصى الجنوب الاسباني فقد أصبحت يائسة، ولئن احتفظوا بموطىء قدم لهم في إمارة غرناطة فقد حرموا من القيام بأي دور سياسي.



نظم مسيحيو الغرب جيشاً جعلهم سادة على فلسطين سنة ١٠٩٩ م أي بعد انتزاعهم طليطلة من الاسبانيين بعشر سنوات. وقد كانت لضياع هذه المنطقة الذي تلا وقوع سوريا في أيدي الأتراك السلاجقة قبل ذلك بخمس وعشرين سنة، نتائج خطيرة في خلافة مصر. لقد أحدث ذلك خراب الامبراطورية الفاطمية كما أحدث ضياع هاتين المنطقتين خراب الدولة البطليموسية في القرن الثاني الميلادي. واثبتت

التجربة بأن وادي النيل مرتبط ارتباطاً سياسياً وثيقاً بشاطىء الشرق.

وقد تبين هذا بعد ذلك بقرن من الزمن، حين أتاح خلاف امراء الشرق الفرنسيين، لصلاح الدين الذي استولى على مصر، أن يحتل سوريا مرة أخرى ويسترجع مدينة القدس سنة ١١٨٧ م وهو وإن ظن أن من الخير أن يكون تحت وصاية خلفاء بغداد النظرية مكتفياً لنفسه بلقب السلطان، معيداً العهد السني إلى سابق أيامه بدلاً من شيعية الفاطميين فقد خلق ثانية امبراطورية مصرية حقيقية زاهرة حكمها خلفاؤه الأمراء الايوبيون من بعده سنوات طويلة.

وكان بفضل ذكائه وتحرره ومروسيته وإنسانيته العميقة ذا أثر كبير في رجال عصر من أصدقائه واعدائه. فشخصيته تثير في خيالنا صورة هارون الرشيد بينما كان ابن أخيه الملك الكامل يذكرنا بالمأمون. لقد كان له ميل شديد إلى العلوم وكان حسن تكريمه للعلماء العديدين الذين يجتذبهم إلى بلاطه ذا شهرة في دار الإسلام كلها. وبلغ من اهتمامه بالعلوم أنه لم يكن ينام إلا وهو مطمئن إلى وجود عالم في قصره

غير بعيد عنه بحيث يستطيع أن يتعاون معه على حل المسائل التي يفرضها على نفسه خلال الليل. ومما لا شك فيه أنه أسس في بلاطه مركزاً دائماً لجمع المعلومات العلمية بحيث التجأ إليه واحد من أوائل حكام الغرب الذين أدركوا أهمية الحقيقة العلمية هو الامبراطور فريدريك الثاني، فعل ذلك بعد أن جمع أشهر العلماء واجتذبهم إليه.

وإذا كان القرن الثاني عشر عصراً ذهبياً لمراكش واسبانيا الموحدين فإن أوائل القرن الثالث عشر عصر ذهبي لمصر بل لمصر وسوريا. فقد شهدت الخمسون السنة التالية اغتناء القاهرة ومدن سوريا العربية ومرافىء الشرق التي كان يحتلها المسيحيون: صور، طرابلس، عكا، تلك المرافىء التي كانت تمر بها تجارة الهند. وقد غطيت دمشق عاصمة الأمويين القديمة وحلب مدينة الأمراء بأجل الآثار الرائعة التي أعطانا اياها الفن العربي كالقاهرة تماماً.

وإلى جانب الفنانين كانت تجتذب العلماء العديدين، من طبيعيين كابن البيطار، العالم النباتي، ومهندسين وجغرافيين ولا سيما الأطباء. وكان ابن

النفيس الطبيب الذي استحق شهرته باعتباره أول من اكتشف خطأ جالينوس في موضوع الاتصال بين بطين القلب وأذينه وشرح كيفية مرور الدم من الواحدة إلى الأخرى: «يجب أن يسيل الدم في الشريان إلى الرئة ليمتزج بالهواء ... ثم يتصل بالوريد الذي يحمله إلى التجويف الأيسر من القلب». إنه اكتشاف دورة الدم الصغرى، وهي خطوة هيأت اكتشاف الدورة الكبرى ونتيجة رائعة للعلم العربي.

ولكن هذا العلم لم يندفع بعيداً في نجاحاته، فقد غلبت المملكة الأيوبية على أمرها سنة ١٢٥٠ م بواسطة المماليك وخضعت مصر للسلطان التركي.

ومنذ ذلك الحين لم تتكون دول عربية مستقلة استقلالاً سياسياً إلا في المغرب. ولكن المغرب ذا الأرض الفقيرة السبخة لا يمكنه أبداً أن يرعى حضارة مختارة*. ولكنه بفضل الطاقة المكتسبة في العصر الذي كان فيه مرتبطاً باسبانيا، أنتج بضعة من

---

* كذا في الأصل، وهو حكم عجيب ليس له سناد لا من التاريخ ولا من المنطق.

الفنانين والعلماء الأفذاذ كابن البنا الرياضي، الذي علم في مراكش أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وكتب رسالة في الجبر (التلخيص) «والغاية من ذلك إيجاد كمية مجهولة مطلوبة بمساعدة المعلوم عندما تكون بينهما الصلة التي تفرضها هذه المسألة». أو كالمؤرخ التونسي ابن خلدون الذي قورن مؤلفه العبقري بمؤلف توسيديد. ولكن هؤلاء استثناءات سعيدة لم يتجدد ظهورها بعد القرن الرابع عشر الميلادي.

في هذه الأثناء أحدث رد فعل التعصب الديني بعد استقرار الحكم التركي أثراً سيئاً في حقل البحث العلمي وتطور المعرفة. فلم تلبث جامعة القاهرة أن غرقت في «بيزنطية شديدة». ولم يعد الشعب المصري، الذي خدرته العقيدة شيئاً فشيئاً، قادراً على أن يلعب دوراً ذا قيمة في تاريخ الحضارة.

أما مصير بغداد فكان مع الأسف أشد قسوة: فقد احتلتها عصابات هولاكو المغولية في ١٠ شباط ١٢٥٨ م وأحرقها هولاكو بعد أن هدمها ووضع آخر خلفائها في كيس داسته سنابك الخيل.

* * *

وهكذا نام العرب في افريقيا نوماً فكرياً طويلاً هم اليوم منه في أول يقظتهم. ناموا بعد أن طردهم المسيحيون من اوروبا والمغول من آسيا إثر تسجيلهم انتصارات رائعة في العلوم والفنون وفي الصناعة والتجارة خلال ستة قرون متتابعة.

لقد انتهت محاولتهم في انتزاع أسرار الوجود وانماء قوة الإنسان والوصول إلى معرفة الحقيقة. كما انتهت المحاولات اليونانية من قبل إلى فشل ذريع، هذا رغم نجاحات لا تنكر عليهم. وبالرغم من جهودهم المجتمعة لم ينجحوا في التعرف إلى سر نظام الكواكب وجهاز دورة الدم كما لم ينجحوا في اكتشاف قاعدة عامة لمعالجة الأمراض أو سر تحول المعادن رغم الجهود التي بذلوها في البحث العلمي. وأرغموا أخيراً على التنازل عن حل هذه المعضلات وتبني رأي شكاك لا علمي عرفناه لهم بعد هذا كله.

فما هو سبب هذا الفشل؟

إنه يرجع دون ريب إلى الغزوات المسيحية، التركية والمغولية، هذه الغزوات التي حرمت العرب من مناطقهم الغنية وفرضت عليهم نظاماً من الحكم

هدم قوتهم الاقتصادية هدماً تعجز معه أكثر الثقافات عن المقاومة وتنهار الحضارات.

ومن الضروري ألاّ تحمل هذه الغزوات عبء مسؤولية وقوف نجاح المعارف العربية أمام التاريخ. فالجمود الذي أصاب العالم الإسلامي راجع إلى شر آخر، شر داخلي، كان يزلزل الإسلام منذ سنوات طويلة.

نحن نعلم أن محمداً قد تعب كثيراً في إقناع معاصريه برسالته وأن أكثر أنصاره المتحمسين كانوا مؤمنين نصف إيمان. ولذلك كان الإيمان خلال القرنين التاليين في العهد الأُموي وأوائل العهد العباسي أضعف مما نتصور اليوم. « فالحرب المقدسة » كانت محاولة تخريب أكثر منها صليبية دينية، واعتناق المسيحيين واليهود والوثنيين للاسلام أحدثته غالباً رغبة التطوع في الجيش والمشاركة في جزء من الغنيمة ورغبة التخلص من بعض الضرائب أكثر منها اندفاعاً صوفياً نحو الدين الجديد.

كان القرآن يضايق علماء الفلك شيئاً ما بمنعهم من

تبني التقويم الشمسي اليوناني وفرض التقويم القمري اللاعملي، هذا التقويم المرتبط بالتقليد العربي القديم، أما تعاليمه فلم تشغل غير حيز ضئيل في أفكارهم.

وكان المسلمون المحافظون يزيد عددهم شيئاً فشيئاً ثم لم يلبثوا حتى كونوا حزباً قوياً يقوده متخصصون في علم اللاهوت. وقد لعب هذا الحزب دوراً خطيراً منذ عهد الخليفة المأمون الذي كان قد أسس «بيت الحكمة»، فأثار هذا الحزب أمامه صعوبات جمة وإن فشل في منع قيام هذا المعهد. وبفضل زعماء هذا الحزب اضطهد بعد ذلك من يسمون بالفلاسفة وضربوا في الشوارع وأحرقت كتبهم وبيوتهم كما قُتل البعض منهم.

ومن الممكن التفكير بأن العلماء العرب كانوا جديرين بالانتصار على مد اللاهوت الإسلامي الصاعد لو تهيأ لهم ما تهيأ لعلماء الغرب بعد ذلك من اكتشاف لأميركا والكواكب الدائرة حول جوبيتر أو فهم لسبر الدورة الدموية أو علة الأمراض.

وكما أن النجاحات التي سجلها اليونان في الهندسة والفلك والطب لم تستطع الصمود أمام المسيحية

الصاعدة في القرن الثالث الميلادي، فكذلك اكتشافات العرب في الجبر والفيزياء والطب لم تكن من البروز والوضوح بحيث تصبح لهم سنداً جدياً في حياتهم. أضف إلى ذلك أن هؤلاء قد خضعوا لفنون من الاضطهاد العنيف حال دون تسجيل أي نجاح في ميدان المعرفة فعل الغزوات المسيحية والتركية.

وقد طبقت عقوبات جسدية على كل من لا يمارس الطقوس الإسلامية لعلها لا تقل في قسوتها عن تلك التي استعملتها الكنيسة بعد ذلك في إسبانيا. فاختفت الحرية شيئاً فشيئاً وحرم تعليم الفلسفة ومزقت كتبها أو أصبحت نادرة كما حرم الفلك إلاّ في حدود الاستهداء إلى وجهة الصلاة. والخلاصة أن العقلية الإسلامية أوائل القرن العشرين أصبحت: «محدودة، مغلقة أمام العلم، عاجزة عن استقبال الأفكار الجديدة»[1]. وأخيراً سيطرت العقيدة العمياء بقوتها كاملة.



(١) رينان: الإسلام والعلم.

٨ - يقظة الغرب

(القرن الثاني عشر والثالث عشر بعد الميلاد)

توقفت الجهود التي بذلتها شعوب الشرق لتطوير معارف البشر في القرن الثالث عشر أي بعد انهيار العرب. وغرق الجميع حتى غزوة نابليون لمصر في نوع « من انهيار عقلي محزن » (١)

إنها شعوب أخرى، شعوب أوروبا الغربية، فرنسية والمانية وإنكليزية قد استيقظت في القرن الثاني عشر والثالث عشر إثر اتصالها بالعرب فاكتسحت هؤلاء وجعلت من مباحثهم مقفزاً لها، وانتهت خلال بضعة قرون إلى نتائج خصبة في ميدان المعرفة وأتاحت للرجال أن يصلوا إلى قمم لم يكونوا آنذاك يرونها.

---

(١) أ. رينان ، المصدر السابق نفسه.

ولم تكن شعوب الغرب حتى ذاك العصر قد لعبت أي دور في إعداد الحضارة. فالغزو الروماني وإن ألحق هذه الشعوب بأمبراطوريته فإنه مع الأسف الشديد قد عجز عن ربطها بالشرق اليوناني البعيد واكتفى بإدخالها في محور روما.

والرومانيون رغم جهود فردية بذلوها لهضم الثقافة اليونانية قد أقلعوا عن ذلك لأن مستوى النخبة المثقفة عندهم أقل من أن تطمع في مثل هذا الأمل العريض. وهكذا لم يحملوا إلى شعوب الغرب أكثر مما فهموه هم أنفسهم وأدركوه فاقتبسوا في الميدان الفني مبادىء البناء والموسيقى اليونانية، وأما في ميدان العلم فقد اكتبسوا مبادىء ساذجة ضرورية للرهبان المسيحيين لحاجات الدين فقط. وقد حصرت هذه الثقافة اللاتينية - اليونانية في الاديرة الكاثوليكية خلال الغزوات التي تحملتها الشعوب الغربية من قبل الهون والعرب والفيكينج وما كان من الممكن أن تتطور في أوروبا الخربة الفقيرة. ولما وضعت معاهدة القديس كلارسورابت حداً لآخر غزوة فيكينجية في فرنسا بدأ عصر جديد لهذه الشعوب،

عصر دام حتى أيامنا هذه لم يَغزها فيه أحد بل لم تعد تخاف مثل هذا الغزو.

فجهودهم وأوقاتهم كانت مكرسة حتى تلك الأيام لرد الغزوات الدورية أو الهرب أمامها. ولما أتاح لهم السلم بأن يتمتعوا بخيراته في القرن العاشر تحولوا من مغزوين إلى غزاة.

رجع الهون إلى بواديهم وذاب الفيكينج بسهولة واعتنقوا النصرانية ثم تصدت هذه الشعوب لجيرانها العرب الأقوياء لتسترجع منهم المناطق التي استولى عليها هؤلاء في القرون السابقة. وقد بدأت الحروب سنة (٩٩٥ م) عندما أخرجهم الفرنسيون من مقاطعة البروفانس ثم أخرجهم الجنويون وسكان بيزا من جزيرة سردينيا، بينما تصدى لهم الفرنسيون النورمانديون من جنوب إيطاليا في جزيرة صقلية.

وتتابعت الأحداث في النصف الثاني من القرن الحادي عشر فاسترجعت القوات الفرنسية والاسبانية منطقة الأرغوان سنة ١٠٦٤ م. وفي سنتي ١٠٧٢ م

و١٠٨٥ م سقطت مدينتا باليرمو وطليطلة في أيدي المسيحيين، ثم أظهر الجنويون وسكان بيزا قيمتهم في جرأتهم على غزو الأرض الأفريقية نفسها وأنقذوا الأسرى المسيحيين في تونس سنة ١٠٨٧ م .

وبينما كان الغربيون يبرزون حيويتهم الشابة بانتصاراتهم المتتابعة كان الأتراك بضيق عقليتهم نصف المتمدينة قد بدأوا يضطهدون الحجاج المسيحيين بعد استقرارهم في سوريا . فأحدث سوء التصرف هذا نتائج مفاجئة.

كان أمير الكاثوليكية آنذاك رجلاً فرنسياً اسمه أود - دي - شاتيليون قد اعتلى عرش البابوية تحت إسم اوربانوس الثاني. وكان يدرك قوة مواطنيه الفرنسيين ويعرف الانتصارات السهلة التي سجلتها الخيالة الفرنسية بعد غزوتها لإنجلترا بقيادة (غليوم الباتار). أو في طرق اسبانيا في مطاردة الكفرة. وكان يعلم أنه يستطيع الاعتماد على أصدقائه الفرنسيين في صقلية وأصدقائه الجنويين وسكان بيزا الفخورين بنجاحاتهم الحديثة. وبذلك جرؤ على نقل الحرب إلى الشرق ضد الإسلام في ٢٧ تشرين الثاني من سنة

١٠٩٥ م وإرسال أحفاد المسحيين الذين كانوا أمام الفيكينج قبل ذلك بمئتي سنة.

تحقق هذا الهدف العظيم فرأينا الخيالة المسيحية المدرعة تدريعاً ثقيلاً تسحق الخيالة الإسلامية الخفيفة في معركة « دوريلا » التي التقت فيها جيوش البابا مع جيوش الأتراك. حدث ذلك هنا كما حدث مثله في إسبانيا وصقلية من قبل. ومهما تكن الصعوبات التي وضعت في طريق الغزاة وتباعد قواعدهم فإن أية قوة من القوى لم تستطع منعهم من احتلال القدس فدخل نائب البابا دخول الفاتحين في سنة ١٠٩٩ م.



وكما أن المد الهليني بتراجعه في القرون الميلادية الأولى أمام الإمتدادات الوطنية في فارس وسوريا قد ترك وراءه مناطق شاسعة اخصبتها عبقريته وهيأت لهم أسباب اليقظة الروحية، كذلك كان شأن العرب الذين بتراجعهم في سوريا وإسبانيا وصقلية أمام اليقظة الغربية تركوا لانصاف البرابرة هؤلاء ما يتمرسون معه بالحياة الفكرية والمدنية ابتداءً من القرن الحادي

عشر الميلادي.

وبعد احتلال القدس بعشر سنوات اتصل مسافر فرنسي بريطاني «أديلار دي باث» خلال حجه، بالعلماء العرب، واستطاع أن يحمل معه إلى فرنسا نسخة من خمسة عشر كتاباً في هندسة اقليدس ونسخة أخرى من قوائم الخوارزمي الفلكية. وفي «لاون» نقل هذين المؤلفين إلى اللاتينية حيث لم يكن معروفاً عن أحدهما في الغرب غير معلومات ابتدائية، وأما الآخر فقد كان مجهولاً جهلاً تاماً. وبذلك دخل العالم اليوناني والعالم العربي في وقت واحد إلى أوروبا أوائل القرن الثاني عشر (١١١٦ م).

أما صقلية، وهي اقرب إلى الغرب، فقد هيأت للمهتمين بالعلوم من أهله، الاتصال مباشرة بالثقافة الشرقية أو الحصول على المخطوطات. وقد قلّد حكام العاصمة «باليرم» من الفرنكو نورمان سابقيهم من الحكام العرب في تسامحهم النيّر فأحاطوا أنفسهم بكاثوليك ويهود بل و محمديين حين تدعو إلى ذلك مناسبة ما. وما تزال الآثار التي بنوها، ككنيسة بالاتين وكاتدرائية مونريال والكتابات العربية

المطرزة على ثيابهم في المناسبات الكبرى لتكريم العذراء، هذه كلها تذكرنا اليوم. ، بالجو العربي من ناحية والجو اليوناني اللاتيني من ناحية أخرى على سواء. وقد ساهم أطباء عرب في تأسيس مدرسة للطب في ساليرنو طارت لها شهرة سريعة، مع أن التعليم فيها كان ابتدائياً وتدرس فيها مؤلفات مغلوطة ذات نصوص لاتينية وعربية. حدث ذلك كله قبل أن تصبح ساليرنو من أهم محطات الصليبيين بمدة طويلة. وعندما أعاد روجر الثاني تنظيم التعليم فيها سنة ١١٤٠ م بدأت تجتذب طلاباً غرباء وتكوّن اساتذة علموا بعد ذلك نظريات العرب في فرنسا والمانيا.

والواقع أن الأوروبيين لم يعرفوا المخطوطات العربية ويتمرسوا بعلومها إلا في إسبانيا . فالتداخل بين مناطق الطرفين ومراحل الانقضاض على العرب قد ضاعفت امكانيات التبادل الفكري وأظهرت امتياز الثقافة العربية على الثقافة اللاتينية. فإذا أصيب الغربي والقشتالي بمرض ما فإنها لا يترددان في الاستشفاء عند أعدائهما ولا يسلمان نفسيهما لطبيب لاتيني ثقتهما به محدودة. ثم ذهبوا إلى أبعد مما رأينا حتى الآن فإنهم قد يتزوجون من العرب إذا دعت إلى

ذلك مصلحة كما فعل ألفونس القشتالي السادس حين تزوج ابنة ملك عربي . كما أظهر الأمراء المسيحيون في قشتالة تسامحاً وحكام صقلية الفرنكو نورمان. فقد احتملوا في عاصمتهم طليطلة وجود عدد كبير من المفكرين اليهود ممن لم يهربوا بعد الغزو وكانوا يملكون مؤلفات العرب في نصوصها الأصلية أو منقولة إلى العبرانية.

وبعد أن نقل أديلاردي بات المؤلفات التي حملها من الشرق إلى اللاتينية بعشرين سنة بدأ الفرنسي ريمون داجان، أسقف طليطلة ومستشار ملك قشتالة ألفونس السابع، يجمع حوله عدداً من علماء اليهود والمسيحيين ممن يعرفون العربية او على الأقل العبرية واللاتينية وطلب إليهم أن ينقلوا إلى اللاتينية أكبر عدد ممكن من الوثائق. وبذلك أسس نوعاً من مدرسة لاتينية للترجمة خلفت مدرسة طليطلة العربية كما خلفت من قبل مدارس الترجمة السريانية في كل من الرهاء وتيودوزيوبوليس (رأس العين) مدارس هاتين المدينتين اليونانية.

وكان جيرار الكريموني من خير العاملين في هذه المدرسة ونحن ندين له بالتعرف على النصوص الأولى لكتاب (المجسطي) ومؤلفات ابن الهيثم والفارابي وعدد من كتب الطب من بينها بعض من مؤلفات جالينوس. ولم تكد تنقل فيقرأها الأسقف ريمون ويدرك أهمية تعليم هذه العلوم للمسيحيين حتى أصدر أمره بتدريسها في المدارس التابعة له. وهكذا أدخل علم الوجود العقلاني لأرسطو دون أن يدرك ما سيكون من أمره عاجلاً أو آجلاً حين يصبح في يوم من الأيام، على تعاكس تام مع نظرية القائلين بالمعرفة الإلهية المباشرة[١].

ومنذ توثقت العلاقات ، خلال القرن الثاني عشر، في الشرق وإيطاليا وإسبانيا ولا سيما في باليرمو وطليطلة بواسطة رواد من الإيطاليين والفرنسيين، استطاعت «العروبية» في القرن الثالث عشر أن تنتشر في الغرب وتصبغ بصبغتها المدن الأوروبية الكبيرة فأخرجت من البربرية اللاتينية وعلى التتابع بيز وبولونيا ومونبلييه وسلامانكة ثم افنيون وباريس

(١) فولوب - ميلر. اليسوعيون وسر قوتهم.

وبعثت فيها حركة فكرية ثقافية.

أصبحت بيز منذ انتصارها على المسلمين مدينة كبيرة غنية جداً وقوية جداً، وكانت تتاجر مع امبراطورية الموحدين ومقاطعات الشرق الفرنسية. وكان التبادل من الكثرة بحيث فرض استقرار بعض من تجار بيز في مرافىء عربية. وقد تمرس أحد أبناء هؤلاء، ليونار فيبوناتشي، في مدينة بوجي التابعة للموحدين، على استعمال نظام العدد العربي وعلم الجبر. وبعد عدة سفرات في المتوسط رجع إلى إيطاليا ونشر وهو في السابعة والعشرين كتاب «الجبر والمقابلة» الذي أصبح له بعد ذلك أجود الأثر في الغرب تحت اسم «LIBER ABACI».

حاول فيبوناتشي في هذا الكتاب أن يثبت لمواطنيه فضل استعمال نظام العرب العددي على النظام الروماني، وأشار إلى مبادىء الجبر الأولى ملمحاً إلى التسهيلات التي تقدمها الهندسة للحصول على أحسن وأجود البرهنات للمعادلات الجبرية. وقد أعلن في مقدمة هذا الكتاب انه «ينشر هذه الأشياء لكي لا يبقى العنصر اللاتيني محروماً من هذه المعارف»، مثبتاً بذلك أن معارف العرب وأساليبهم

في العمل بقيت مجهولة من قبل الكثرة الساحقة من الغربيين حتى أوائل القرن الثالث عشر رغم الجهود التي بذلها كل من أديلاردي بات وجيرار الكريموني.

كان انتشار هذا الكتاب سريعاً حتى أن عدداً كثيراً من التجار ومن المهتمين بالأشياء الجديدة كان يعرفه ويستعمل طريقته بعد خمسين سنة من ظهوره فقط. لذلك يعتبر مؤلفه عاملاً مهاً في نقل الثقافة العربية إلى الغرب مشبهاً طاليس الميلاطي الذي نقل الثقافة المصرية من مصر إلى إيونية، أو الخوارزمي الذي حمل إلى بغداد الحساب الهندي. وقد بلغ من شهرة ليونار أن الإمبراطور فريدريك الثاني توقف في بيز ليشرف على مباراة اشترك فيها ليونار، وخرج منها فائزاً بينما سقط المتبارون الآخرون.

ورعى فريدريك الثاني، آخر حكام الملكية التانكريدية، في بلاط صقلية تقاليد جده روجر الثاني المتحررة. فاحاط نفسه ، وهو المعجب بالثقافة العربية، بعلماء من اليهود ووكل إليهم امر ترجمة المخطوطات العربية ولا سيما كتاب (المجسطي) لبطليموس وحاول وسعه أن ينشر هذه المؤلفات في

أوروبا الغربية. كان فضولياً كثير السفر، قليل الاهتمام بالعامل الديني، ارتبط بصداقة وثيقة مع السلطان الكامل وكان يرسل إليه مسائل حسابية يدرسها السلطان مع الشيخ علم الدين طاسف ثم يرسل إليه الحلول[1].

وفي السنة التي تلت مباراة بيز في الرياضيات انشأ فريدريك الثاني جامعة نابولي وحسّن التعليم في مدرسة ساليرنو الطبية حيث سمح بإجراء أول تشريح لجثة بشرية رغم معارضة مؤتمر تور الكنسي[2] سنه (١٢٣٠ م). فجاءها الطلاب في اعداد كبيرة من كل مناطق أوروبا ولا سيما الجارتين فرنسا والمانيا.

وبينما كان فريدريك الثاني وليونار فيبوناتشي ينشران « العروبية » في المدن الإيطالية، انتشرت هذه ايضاً في إسبانيا حيث حافظت الحضارة العربية على امتيازها في نظر الغربيين رغم انهيار الموحدين السياسي واسترجاع المسيحيين لقسم كبير من البلاد. فشجعها الحكام الذي تسنّموا عرش قشتالة واستحقوا



(٢) « الكنيسة تقشعر خوفاً من الدم »

لقب «انصار العرب» شأن ملوك صقلية التانكريديين.

كان قد مر على موت ابن رشد عشر سنوات حين انشأ الملك الفونس التاسع في بلنسية أول جامعة مسيحية في إسبانيا على طراز الجامعات العربية (١٢٠٨ م). ثم بنى أحد خلفائه الفونس العاشر الحكيم أول مرقب في الغرب واستخدم هيئة من فلكيي العرب واليهود. فاسكنهم في مساكن مترفة وكلفهم بتصحيح اخطاء علم الفلك القديم كما أثبت ذلك البتروجي في قوله: «ان الجانب النظري يبتعد باطراد عن ميدان الملاحظة والمراقبة». وقد نظم هؤلاء العلماء قوائم فلكية سميت بالقوائم الالفونسية سنة ١٢٥٦ م.

واعتمدوا في تنظيم هذه القوائم على مسلّمات تختلف عن تلك التي اعتمدها بطليموس. إن تعقيد هذه المسلمات هو الذي جعل الفونس العاشر يقول: «لو أن الله قد دعاه للاستشارة عندما خلق الوجود لكانت الاشياء على نظام احسن واكثر بساطة»[١] وقد كان

(١) مونتوكلا تاريخ الرياضيات

لهذه القوائم اثر كبير فساعدت مع مؤلف ليونار فيبوناتشي على إشاعة استعمال الاعداد الهندية - العربية.

ولم تنحصر الفائدة في حدود المدن الإيطالية والممالك الإسبانية في القرن الثالث عشر بل امتد شعاع الثقافة العربية عبر جبال البيرينه والالب إلى مملكة فرنسا. وعرف سكان جنوبي فرنسا قبل ذلك كثيراً من اليهود الاطباء الذين استقروا في ناربون ومونبلييه وانشأوا فيها مدارس طبية علموا فيها الطب العربي. وطارت شهرة مدرسة مونبلييه وهي واحدة منها وأتاها اساتذة من ساليرنو علموا فيها. ثم أصبحت من بعد كلية معروفة. وبما أن توجيهات المؤتمر الكنسي أكثر حرمة في فرنسا منها في مملكة ملك صقلية المحروم من الكنيسة فقد حُرم فيها التشريح واكتفي بدراسة المؤلفين العرب.

وبفضل نجاح البعثة العسكرية الفرنسية في الشرق وإنشاء الامارات فيه، اكتسبت العروبية مدناً فرنسية في الشمال ولا سيما باريس التي زادت اهميتها بعد أن جعلها الملك فيليب اوغسطس عاصمة لفرنسا. وكانت العلاقات السياسية وثيقة بين عكا وباريس وكذلك

المبادلات التجارية. فتمرن الباريسيون على استعمال مخترعات الشرق واكتشفوا أشياء جديدة بالنسبة لهم من مثل المشمش والخرشوف والسكر والقطن والعود والطبل ومطحنة الهواء ونسج السجاد. وإذا كان النفوذ العربي قد ظهر بانتشار طراز الحياة الشرقية، فقد ظهر أيضاً في حقل أسمى وأرفع. حاول الملك فيليب اوغسطس إثر رجوعه من الأرض المقدسة أن يجمع في جامعة واحدة مختلف المدارس القائمة على جبل القديسة جنفياف في باريس ويمنحها امتيازات مهمة سنة (١٢٠٠) في عصر لم تكن توجد فيه جامعات لاتينية غير جامعتي سالرنو وبولوني.

وقد اتيحت لحفيده القديس لويس فرصة السفر إلى الشرق للدفاع عن المصالح الفرنسية، ثم رجع بعد أن غزته الحضارة العربية. فجمع في فرنسا - في سانت شَابَّلْ - مكتبة مؤلفة من المخطوطات اللاتينية التي استطاع الحصول عليها. فعل ذلك وقد أدهشه جهل رعيته لعلم العرب. كما حمى جامعة باريس التي لم تبلغ ما بلغته جامعة القاهرة من المجد. ولكنها استطاعت خلال حكمه ان تحصل على شهرة جعلتها اوثق

مدارس أوروبا على الإطلاق. يشهد على ذلك هذا السيل الدافق من الطلاب والعلماء الأجانب ولا سيما البريطانيين والالمان الذين أتوا للحصول على « تكريس باريس »[1].

وإذا كان للاهوت الحظ الاوفر في التعليم فإن القليل من العلم الذي كان يدرس قد استخرج من مؤلفات عربية أو مؤلفات يونانية منقولة عن العربية. كان حنا هوليوود يستخرج معارفه من (المجسطي) ومؤلف البتاني ويعلم في باريس الجبر والفلك. كما أن الالماني الشهير البرت فون بولستاد المعروف بالبرت الكبير الذي أعطى اسمه لميدان موبار - كما نعلم - لم يكن يعلم في الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية إلا ما درسه في المؤلفات العربية في جامعة بادوا الرشدية.

أما فيما يتعلق باهم شخص ظهر في القرن الثالث عشر، واستحق لقب «Doctor mirabilis»، وكان بطل العصر الفكري، البريطاني، روجر باكون[2]،

---

(١) ج. فوفا - J.FOUVET مراحل الطب.

(٢) يحسن بالقارئ الا يخلط بين روجر باكون وفرنسوا باكون، الذي تناول بعد الأول بعدة قرون بعضاً من وجهات نظر سميه.

فإن قاعدة تكوينه الثقافي هي دراسة المؤلفين العرب ولا سيما مؤلفات ابن الهيثم الفيزيائي القاهري. وقد ناضل هذا الرجل في باريس دون نجاح كبير - وهو المتحمس لإنتاج العرب العلمي - ليزيد من اهمية التعليم العلمي في الجامعات على حساب اللاهوت. ففي نظره، كما كان في نظر افلاطون من قبل، أن «الرياضيات الإلهية» هي وحدها التي تستطيع تنقية العقل وتهيئة الطلاب لاكتساب كل معرفة، وقد عرض في مؤلفه الرئيسي (L'Opus Majus) الاسباب التي تجعل الفلك والفيزياء مرتبطين نهائياً بالرياضيات، واعلن ان دراسة العلوم الطبيعية يجب ان تعتمد على التجربة. (١٢٦٧ م).

* * *

ورغم الجهود التي بذلها هؤلاء النقلة، من علماء وحكام، للدعوة إلى «العروبية» في الغرب خلال القرن الثالث عشر فإن من الخطل الاعتقاد بان الغربيين قد بلغوا بسرعة المستوى الثقافي الذي بلغه الشرقيون. فالحضارة لا تنقل بسهولة. وقد شهدنا العقبات التى اصطدم بها الرومانيون قديماً حين حاولوا

هضم الثقافة اليونانية. ولئن انتقلت هذه الثقافة بعد ذلك إلى الفرس والهنود ثم إلى العرب فقد حدث هذا الانتقال بجهود طويلة المدى وبفضل ظروف سعيدة. لذلك لا نستغرب مرور الزمن الطويل الذي قضاه الاوروبيون لمساواة اساتذتهم الشرقيين. ومهما تكن عبقرية رجال كليونار فيبوناتشي او روجرباكون، فمما لا ريب فيه انهم لم يكتشفوا في الحقيقة شيئاً جديداً ولم يجدوا ظاهرة ممتازة في حقل المعرفة يجهلها العرب من قبل، بينما نجد في مثل هذا العصر رجالاً كابن البيطار وابن النفيس يقومون في دمشق باعمال ذات اصالة خاصة. وإذا علمنا ان مدينة كباريس تحتوي على مئتي الف من الناس لا تضم غير ستة اطباء وان مثل هذه المدينة في الشرق تحتوي على عدد اكبر كثيراً من هؤلاء الاطباء، وإذا علمنا ان مكتبة ملك فرنسا لا تكاد تحتوي على اكثر من مئات قليلة من الكتب بينما تحتوي المكتبات العربية بصورة عامة على آلاف كثيرة منها لكفانا لمعرفة الفرق القائم بين الحضارة الغربية والحضارة الشرقية.

وقد شهد القرن الرابع عشر إثر الغزوات التركية

وظهور التعصب الإسلامي انهيار العالم العربي في الشرق وانتصار « العروبية » في الغرب. وبينما كانت جامعة القاهرة مقبلة على الإغفاء في جمود العقيدة عقد مؤتمر فينا للاساقفة الكاثوليكيين الذي نظم تعليم العربية في اوروبا بإيجاد كراسي خاصة لها في كل جامعات الغرب الرئيسية: بولون، روما، سلامنكة، باريس واوكسفورد. فالمنابع الفكرية العربية كانت تنطفىء، بينما كانت تلك التي اشعلت في الغرب خلال القرنين الثاني والثالث عشر تشع وتتضاعف باطراد لا نهائي. إنه العصر الذي كانت تجتذب فيه افينيون إلى البلاط البابوي الرائع علماء وفنانين، وهو العصر الذي كان فيه جيوتو يبني « برج الجرس » الفلورنسي ودوقات البندقية يفتنون بالاتجار بإنتاج الشرق؛ واصبحت فيه « الفلاندر » من إخصب بلدان الارض، وشهدت « بْرُوْجْ » ولادة الاخوة فان إيك، كما اصبحت فيه نورمبرغ - القائمة في وسط الطريق بين إيطاليا والمدن المتعاقدة في شركات تجارية - مركزاً من اهم مراكز اوروبا التجارية؛ انه العصر الذي سارت فيه جامعات اوكسفورد وكمبردج على نهج جامعة باريس وهي التي اسسها في بريطانيا الملوك الفرنسيون

فاخذت تشع اشعاعاً عنيفاً. وهكذا تهيآت مدن إيطاليا ومدن المانيا، ومملكتا فرنسا وانجلترا وكلها غنية قوية لمنح العالم مفكرين وعلماء توقف الشرق عن انتاجهم.

لقد استطاع القرن الثالث عشر ان يشهد عالماً غربياً كروجر بيكون - وهو الفلكي الممتاز - يجرؤ على ان يقترح على البابا تعديل التقويم السنوي لينسجم مع سير الكواكب، وهي مهمة صعبة شديدة. كما جرؤ احد معاصريه هنري دي باتان الفلامندي على ان يكتب بخجل متردد في الاخطاء التي ارتكبها الفلكيون العرب حين سجلوا القوائم الالفونسية.

وإذا كان العلماء الذين ولدوا في القرن الرابع عشر قد ترجموا وشرحوا نصوصاً عربية، فالمهم هو انهم نشروا لاول مرة مؤلفات علمية وفلسفية اصيلة ذات قيمة كبيرة ارفع شأناً من المؤلفات الشرقية المعاصرة. وهنا ادرك نيقولا ذُوْ رَسْمْ، امين سر ملك فرنسا، شارل العاقل، بعد الخلاف الناشب الذي قسم الفلكيين، انصار نظام بطليموس، والذين تبنوا نظرية البتروجي الرشدية، إلى معسكرين، ادرك بان هؤلاء

واولئك على خطأ مبين. فالارض في نظره تدور حول نفسها «لان السفود يدور حول النار لا النار حول السفود». وبعد ذلك بقليل جرؤ فرنسي آخر، بطرس دالي، مستشار جامعة باريس فأكد في مؤلفه الشهير (صورة العالم) «ان طرف اسبانيا لا يمكن ان ينفصل عن الهند بمسافة طويلة». وقد اشتهر هذا الكتاب ودفع احد قرائه - كريستوف كولمبوس - بعد ذلك بمائة سنة إلى الاتجاه نحو الغرب.

هذان المثلان كافيان لتوضيح مدى تفتح العقول الغربية منذ اليوم الذي دق فيه ليونار فيبوناتشي جرس يقظة اللاتينية بنشره كتاب (LIBER ABACI).

وفي الوقت نفسه الذي ظهرت فيه العبقرية الفكرية، بدا الفضول العلمي وروح الابتكار اللذان كانا حتى هاتيك الايام امتيازاً تقليدياً، لا يدافع، لليونانيين والشرقيين يصبحان سمتين غربيتين كلما ابتعدنا عن العالم الشرقي. فهنا فضول المسافرين - كماركو بولو - الذين اخذوا يقصون على مواطنيهم قصص اسفارهم لينقلوا إليهم المعارف التي

كانوا يكتسبون وهناك روح ابتكار الصانعين الذين شحذت مخيلتهم بفضل الآلات والمنتوجات المستوردة حديثاً من الشرق، فاخذوا يحسنون ببراعة فائقة اساليبهم وآلاتهم بعد ان تركوا التقليد القديم وتحرروا من إساره.

وهكذا اخترع الفلورنسيون زجاج النظارات وحساب الدوبيا بينما كانت البوصلة العربية تحسّن في أمالفي بوضعها فوق محور. اما في فرنسا فقد بدأوا يستعملون ساعة الثقل بعد ان اتقنوا صنع قلادة الجر التي كانت تسمح باستعمال الخيول لجر العربات.

اما في الحقل الفني فقد بدا الاوروبيون ببعض معلومات بدائية في الموسيقى وفن البناء ورثوها عن اليونانيين ثم اثبتوا، باختراع ما يسمى بال (Contre Point) وببناء كنائس رومانية في فرنسا الجنوبية وكاتدرائيات غوطية في فرنسا الشمالية، ان النبوغ الفني قد حصل لهم كما تهيا لهم في الوقت نفسه روح الابتكار وذوق البحث عن الحقيقة. إن اثر (Beaudieu) في اميان كان يحتوي على نحت عهد النهضة كله، كما ان البوصلة كانت تحوي سر طريق امريكا. اما زجاج النظارات فقد كان يشتمل على

نظرية الجاذبية العامة.

لقد كان في مكنة العالم العربي ان يغرق في تقاه الغبي وان ينهار الفكر في دمشق والقاهرة وغرناطة ومراكش. ان هذه الرجعية غير ذات اهمية لان البذور التي كانت تنمو في فلورنسا وباريس، في بروج واكسفورد، في نورمبرغ والبندقية تبشر بحصاد مدهش، واوربة التي كملت يقظتها راحت تثبت قدرتها على السير وحدها منتصرة، خلال الاعصر الحديثة، في الطريق إلى المعرفة.



خلاصة

لو القينا نظرة خاطفة عامة على هذه المرحلة من التاريخ، التي اطلقنا عليها اسم القرون الوسطى، بعد نهاية هذا السفر السريع لادركنا وشيكاً سبب ظهورها لنا باردة مبهمة قاتمة بالنسبة للقدم اليوناني النقي. فالحق ان مؤرخينا قد حاولوا جهدهم ان يجعلوا من العالم الغربي محوراً للتاريخ مع العلم ان كل مراقب محايد يدرك ان الشرق الادنى هو المحور الحقيقي لتاريخ القرون الوسطى، فعلَ مؤرخونا هذا كما حاول الفلكيون الذين ظهروا قبل كوبرنيك ان يصطنعوا نظريات معقدة تضع الارض في مركز العالم. على اننا مع ذلك مدفوعون الى الاعتراف ببراعة هؤلاء المؤرخين للوصول إلى غايتهم من التاريخ. فقد استفادوا بدقة من الانتقال من روما إلى بيزنطة، من عاصمة الإمبراطورية الرومانية اليونانية ليتركوا العالم الشرقي المتمدين خفية ويقفزوا من روما قسطنطين إلى

«غال» كلوفيس دون ان يثيروا تقريباً انتباه احد من الناس. ومن الحق علينا ان ننظر بشيء من التسامح إلى سذاجتهم التي بها يحاولون جعل الكنيسة الكاثوليكية او ملكية الميروفانجيين محوراً للعالم.

ولما اكتشف المخالف حيلتهم، وادرك بفضل مطالعاته واسفاره ان كل ما قيل او فكر فيه او كتب وبني ورسم وكان حقاً ممتازاً وقوياً قد رسم وبني وكتب وقيل وفكر فيه في الرها او اوجين، في بغداد او دمشق، في القاهرة وقرطبة، لا في اديرة الغرب، وعندما ادرك ان الرهبان المسيحيين، رغم اجتهادهم، كانت مهمتهم نسخ الصور المشوهة لثمرة (العزيز) من مخطوطة إلى مخطوطة خلال القرون دون ان يتوصلوا إلى اكتشاف الجاذبية او دورة الدم، ظهر له مجهود مربينا البائسين تافهاً ومضحكاً، وبعبارة اخرى قاحلاً إن لم يكن مضراً.

وقد انقسم هذا العصر الوسيط الذي اخترعه هؤلاء المؤرخون إلى قسمين اقصى وادنى. اما الاول فقد حاول الالتصاق بالتاريخ القديم واقترب الثاني من النهضة. ولو بقي هذا الإتجاه قائماً لوجب ان يختفي

برامجنا التعليمية في المستقبل. وهكذا تقفز مؤلفاتنا المدرسية عبر ثمانية قرون من حكم قسطنطين إلى الصليبيين.

وإذا اردنا تفادي مثل هذا الحادث فعلينا الاعتراف بما اكتسبته الإنسانية في ذاك العصر وان لا نخجل من الرسوم ، والنحوت، والآثار والمخترعات والمكتشفات او اية ظاهرة من ظاهرات الفكر في القرن الوسيط. ففي الساعة التي تنعتق فيها شعوب الشرق من جمودها يخلق بنا نحن الغربيين، ان نقدر انتاجهم القديم حق قدره وندرك الإمكانات الضخمة التي يهيئها لهم المستقبل.

وقد اصبح من الضروري ان نفرق في برامجنا التعليمية بين التاريخ والادب الشعبي او الدعاية القومية التي لا يجوز ان تخلط به.



ولو سئلنا عن الظاهرة المميزة للقرون الوسطى لما كانت الإسلام رغم عظيم اهميته. وبذلك نخالف رأي كثير من المستشرقين.

لقد كان شأن الإسلام قليلاً خلال الازدهار الرائع للقرون الوسطى. فقد انتج «المعجزة العربية» كما رأينـا ، مفكرون احرار، ويهود، ومسيحيون في اعداد مساوية للمسلمين. ومهمة الإسلام اقرب إلى ان تكون سلبية لان الاعمال الرائعة ومكتشفات علماء الخلافة لم تحدث لهم غير اللعن واللوم من قبـل اللاهوتيين المسلمين. كما قال رينان: إنه من غير الممكن ان نشرف الإسلام بالفلسفة والعلوم التي محاها، والحق انه لا يجوز «ان نرث من نقتل»!

وقد تساءل البعض عما إذا كان من الجائز ان نرى في هذا العصر خصائص الساميين، فقد زعم ذلك بعضهم واثبتوا ان النهضة العربية قد اتاحت للجنس السامي ان يغزو مناطق المغرب واسبانيا وصقلية التي كـان قد احتلها ايام الفينيقيين. لقد تحدثوا عن «النهضة السامية».

والواقع ان هذه ظاهرة ثابتة ولكن هل هي بمثل هذه الاهمية؟ إن هذا موضوع آخر! هل يمكننا الزعم ان السوريين والعرب خلال القرون الوسطى قد ورثوا بطريقة ما الروح والثقافة الفينيقية او الاشورية

الكلدانية التي ظهرت في الألف السنة الاولى قبل المسيح. وهل يمكنهم ان يكونوا مكملين لها؟ نحن نشك في ذلك. ونحن نعلم انهم كانوا مدينين للثقافتين اليونانية والهندية في حقيقة تكوينهم. لقد راينا رياضياتهم وطبهم وموسيقاهم وعمرانهم تلد متأثرة باليونان والفرس او الهنود ولكننا لا نجد ما يدل على تأثرهم بفنون او علوم الحضارات السامية القديمة في العراق او فينيقيا(١). فالجنس السامي ووحدة الدم لم يكونا خيراً من الإسلام لصبغ تاريخ القرون الوسطى.

كان رينان يتحمس لفكرته القائلة بأن نتاج القرون الوسطى الفلسفي هو في حقيقته يوناني ساساني! دون أن يتجاهل الدور الرئيسي الذي قام به اليونانيون والفرس في نقل المعارف القديمة إلى العرب. ويظهر لنا أن استعمال هذا التعبير غير عملي.

ولو حاولنا أن نكون منطقيين لأطلقنا على الفلسفة اليونانية، صفة الكلدانية المصرية واضعين

---

(١) إن إشارتنا إلى التقارب الهندي السومري الذي أشرنا إليه في أوائل هذا الكتاب لا تعني ما ذكرناه لأن السومريين غير ساميين

اصولها موضع الاعتبار مع جهلنا حظ كل من هذه الاصول في تكوين هذه الفلسفة.

ولكي لا نزيد من خطورة الاثر الإيراني في حضارة القرون الوسطى نورد نص البيروني الذي كان رينان يجهله فعرفناه نحن.[1] قال البيروني: يجد العلم نفسه - في دهشة منه - منطفئاً في لغتي الوطنية كما يجد الجمل نفسه في مقام الكعبة او الزرافة بين الحيوانات الاصيلة.. إن الكتاب العلمي الذي ينقل إلى الإيرانية يخسر روعته وينكسف مداه وتنبهم خطوطه وتمحى فائدته..

والواقع اننا إذا استثنينا بضعة مؤلفات مكتوبة بالسنسيكريتية واثنين او ثلاثة مكتوبة باللاتينية - لوجدنا ان كل الرسائل العلمية الممتازة مهما كانت قيمتها مكتوبة في القرون الوسطى باللغة العربية.

فالامر مهم وخطير، وتاثير اللغة العربية في شكل تفكيرنا كبير. وقد لحظ ذلك الاجتماعي الكبير اوزفلد

(١) أورده ماسينيون في حاشيته التي قدمها بالعنوان التالي: كيف نضع دراسة ان الثقافتين العربية واليونانية اللاتينية على قاعدة مشتركة.

شبنجلر وسجل ملاحظاته في كتابه الشهير «انهيار الغرب». ولا شك انه قد اخطأ حين بالغ بدعواه ان العهد العربي قد بدأ في القرن المسيحي الأول. وقد يثير ابتسامنا حين يعلن أن بانتيون روما هو اول المساجد أو حين يتحدث عن الخليفة ديو كليتيان أو يعتبر ديوفانت رياضياً عربياً.

ولكنه مع ذلك محقٌ من ناحية أخرى إلى حد بعيد جداً. فقد لعبت اللغة العربية دوراً اساسياً كوسيلة المعارف «وآلة للتفكير» خلال المرحلة التاريخية التي ابتدأت حين احتكر العرب على حساب اليونان والرومان طريق الهند ثم انتهت حين خسروها.

ومما لا شك فيه أن العلماء والفنانيين المنتجين لم يكونوا كلهم من دم عربي. ولكن ما اهمية هذا أيضاً؟ فهل نظن أن كل من نسميهم يوناناً هم من دم هليني نقي؟ لا أحد يزعم ذلك! فقد كان بينهم ليديون وكاريون ومقدونيون وسوريون نسميهم يونانيين لانهم كانوا يتكلمون أو يكتبون أو يفكرون باليونانية. «كان ايزوقراط يقول: اليونانيون هم الذين يشاركون في تكوين ثقافتنا لا الذين يشاركوننا في اصولنا».

وبالرغم من فوارق الجنس والعصر، والأزياء واللهجـــات، فالظاهر ان العبقريـــات المختلفــة كالخوارزمي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون لمجرد كونها مفكرة بالعربية تسمح لنا بأن نسمي العصر الذي عاشت فيه باسم « القرون الوسطى العربية » تماماً كما نسمي العصر السابق باسم « القدم اليوناني ».



الفهرس

